

أساطين الفلسفة الحديثة والمعاصرة

٤

چون لوك
إمام الفلسفة التجريبية

دكتورة راوية عبد المنعم عباس
أستاذ الفلسفة المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ١١٠٧٤٩

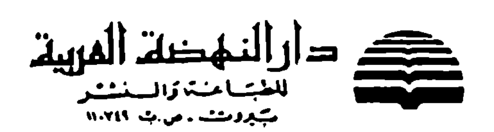
چُون لــُوك

إمام الفلسَفَـة التجْـريبيّـة

أساطين الفلسفة الحديثة والمعاصرة ٤

چون لــوك
إمام الفلسفة التجريبية

دكتورة راوية عبد المنعم عباس
أستاذ الفلسفة المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



الناشر



الإدارة: بيروت ـ شارع مدحت باشا ـ بناية كريدية
تلفون : 818704 ـ 818705
برقياً : دانهضة ـ ص.ب: 749 ـ 11
تلفاكس: 232 ـ 4781 ـ 212 ـ 001

المكتبة: شارع البستاني ـ بناية اسكندراني رقم 3
غربي جامعة بيروت العربية
تلفون: 316202 ـ 818703

المستودع: بئر حسن، خلف تلفزيون المشرق
بناية كريدية ـ تلفون: 833180

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

صدق الله العظيم

إهداء

إلى روحين في عالم الخلود
إلى أبي وأمي

رحمهما الله

ر.ع.ع.

"العقل صفحة بيضاء يكتب عليها
الحسّ والتجربة بآلاف الطرّق"

جون لوك

تمهيد

تعريف بالمذهب الحسي «لمحة تاريخية» :

يعد المذهب الحسي[1] من أقدم المذاهب في تاريخ الفكر الفلسفي فقد ظهر عند اليونان ممثلاً في مذهب الذريين Atomism على يد لوقيبوس Leucippus (٥٠٠ ـ ٤٤٠ ق. م) الذي وضع أول تفسير ميكانيكي صرف للعالم دون أن يتعرض لفكرة الغائية، كما نظر لخصائص المادة التي تمثل موضوعات العلم الكمي باعتبارها خصائص جوهرية للأشياء.

وقد تطور المذهب الذري بعد ذلك على يد ديمقريطس Dimocritus الذي (عاش في القرن الخامس ق. م)، ثم أبيقور Epicurus (٣٤٢ ـ ٢٧٩ ق. م) الذي نادى بمذهب اللذة وشرح النظرية الذرية بعد إضافة أفكار جديدة إليها مثل فكرة سقوط الذرات في خطوط متوازية فيما يشبه المطر، وانحراف بعضها تلقائياً، مما يتسبب في تصادمها.

ويرى الذريون أن العالم يتألف مما هو موجود أي ما يمثل الملاء، أو الذرات ومما هو غير موجود أي الخلاء أو الفراغ، وليس في العالم سوى الخلاء والذرات التي تتكون الأشياء باجتماعها وتفسد بافتراقها، وهي لا تتغير منذ الأزل إلا من حيث علاقاتها المكانية. ويرى الذريون أن المادة خالدة وأنها تملك مصدراً داخلياً للحركة.

---

(١) يعني هذا المذهب إرجاع كل معرفة إلى الإحساس فمن يفقد حاسة من حواسه فقد المعرفة بما يقابلها من محسوسات. ويطلق مصطلح Sensationalism على المذهب الحسي وهو أحد صور المذهب التجريبي الذي يطلق عليه اسم Empiricism بالإنجليزية وهما في مقابل المذهب العقلي.

ولا تباع المذهب الذري نظرية شاملة في النفس التي يتصورونها مادية تتألف من ذرات سريعة الحركة، شديدة اللطافة موزعة في أرجاء الجسد، وتتحلل معه بعد الموت، كما فسروا الإدراك الحسي بأنه إنبعاث الذرات من الجسد موضوع الإدراك إلى الحاسة المدركة. أما مذهبهم في المعرفة فكان حسياً فالأحاسيس صادقة بذاتها لأنها تنطلق من الواقع الموضوعي. ومنشأ الخطأ هو تفسير الأحاسيس، وقد عرفوا الإحساس بأنه تدفق مستمر للجزئيات الدقيقة يزاح من سطح الأجسام ويخترق الحواس فيحدث فيها صور الأشياء.

وفي العصور الحديثة نجد طهوراً للنزعة الحسية عند توماس هوبز Thomas Hobbes(١٥٨٨ - ١٦٧٩) الذي يعد خير ممثل للمذهب الحسي الإنجليزي، فيذهب إلى أن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة، وأنه إذا فقد الإنسان حاسة من حواسه فقد علمه بما يقابلها من المحسوسات، وبلغ الاتجاه الحسي أقصى مداه عند هوبز عندما تصور أن أي تصور في عقل الإنسان ما هو إلا ذرة حسية تصدر من الإحساس ولها خصائص الحس، كما أرجع الانفعالات ذاتها إلى حركات جسمية سواء خارجية أو داخلية ورد التخيل، والذاكرة، وتداعي المعاني - وكلها أفعال تتعلق بالمخ - إلى المادة والإحساس.

ثم ظهر المذهب الحسي في صورة تجريبية مدعمة بالحدس والتأمل الباطني عند جون لوك الفيلسوف التجريبي الإنجليزي John Locks(١٧٢٢ - ١٨٠٤).

وقد تطور المذهب الحسي عند دافيد هيوم David Humeالذي أنكر المعرفة الأولية السابقة على التجربة، وأراد إصلاح عيوب الفلسفات السابقة جميعاً في مؤلفه «رسالة في الطبيعة الإنسانية Treatise of human Nature. التي كانت قائمة على افتراضات غير يقينية وذلك بإقامة الأسس لعلم تجريبي صحيح عن الطبيعة الإنسانية كما ذهب إلى أن العقل يتألف من إدراكات

حسية تنقسم إلى انطباعات وأفكار تسمى الأولى بصفة عامة بالإحساسات والمشاعر والانفعالات، ويطلق على الثانية إسم الخواطر العقلية، تتسم الأولى بالقوة والحيوية والحياة. أما الثانية فتمثل نسخاً باهتة من الأولى - ويطلق عليها هيوم أحياناً إسم «الصور الذهنية».

بهذه الكيفية بلغ المذهب الحسي أوجه عند هيوم الذي أنكر المعارف العقلية السابقة على التجربة، وفسر الفكر عن طريق تداعي المعاني فأنكر ضرورة مبدأ العلية كما تصوره العقليون الذين استهدفهم بنقده، وأنكر تفكيرهم الميتافيزيقي كما أعلى من قيمة التجربة والأبحاث الرياضية وأكد على أهمية الأسس التجريبية والرياضية.

وقد تطور المذهب الحسي عبر تاريخ الفلسفة، فظهرت النزعة الحسية والمادية ممثلة في نظرية التطور التاريخي للعالم العضوي عند تشارلز داروين Charles Robert Darwin(١٨٠٩ - ١٨٨٢) الذي وضع القضايا الأساسية لنظرية التطور في مؤلفه الشهير «أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي أو حفظ الأجناس المنفصلة في الصراع من أجل الحياة»، وقد تميزت فلسفة داروين بوجه عام بالنزعة المادية.

وفي الأربعينات من القرن التاسع عشر يظهر المذهب الحسي المادي متطوراً في شكل المادية الجدلية Dialectical Materialism التي تعد جزءاً أساسياً من المذهب الماركسي الذي وضعه ماركس وأنجلز وطوره لينين وغيره وتعني المادية الجدلية النظرة العلمية الفلسفية للعالم.

بعد أن عرضنا في عجالة لتطور صور المذهب الحسي في تاريخ الفلسفة نبدأ في عرض صورة متكاملة للمذهب الحسي التجريبي عند الفيلسوف الإنجليزي جون لوك بوصفه خير معبر عن المدرسة الحسية التجريبية الإنجليزية وممثلاً لنبض القرن السابع عشر في مجالات الميتافيزيقا والسياسة والتربية والأخلاق فما زال يذكره مؤرخوا الفلسفة على أن مذهبه الشامل في

جميع هذه الميادين يعد تجسيداً لروح عصره المضطرب الـذي عبر عنـه بفكر متـزن حر نـادى بالإعـلاء من قيمة الفلسفـة والولاء للعقـل فـاعتبـر بحق أحـد مؤسسي الفلسفة التي تميزت بها الحضارة الصناعية الحديثة[1].

وسوف نعرض فيما سيأتي لمذهب لوك التجريبي مفصلين حياته ومؤلفاته كما نعرض لنـظريته في المعـرفة، ثم لآرائـه في مجالات السيـاسة والأخـلاق والتربية والدين.

---

(1) Maurice Cranston, **Locke on politics. Religion and Education**, New York 1965 p. 7.

الفصل الأول

جون لوك ـ حياته ومؤلفاته

John Locke

(١٦٣٢ ـ ١٧٠٤)

١ ـ حياته ومؤلفاته وموقفه الفلسفي

أ ـ حياته

ب ـ الاهتمامات الفكرية للفيلسوف وطبيعة العصر

جـ ـ مؤلفاته

١ ـ حياته ومؤلفاته وموقفه الفلسفي

أ ـ حياته :

١ ـ ولد جون لـوك John Locke في ٢٩ أغسطس من عـام ١٦٣٢ (ومن المصـادفة أن يـوافق يوم ميـلاده نفس اليوم الـذي ولد فيـه بندكت دو سبينـوزا الفيلســوف الهـولنــدي وصـاحب مــذهب وحـدة الــوجــود) في رينجتــون Wrington بمقاطعة سومرست Somerset بانجلترا وذلك إبان حكم الملك شارل الأول Charles I ، وقـد نشأ الفيلسـوف في أسـرة ذات صيت سيـاسي عـريض على الرغم من انتمائها للطبقة الـوسطى في المجتمـع الإنجليزي، فقـد عمل والده الذي كان ينتمي إلى جماعة البيوريتان (المتطهرون) بالمحاماة، كما كان له دوراً كبيراً في الحـرب الأهلية، وكـانت أمه التي تكبـر والده ببضـع سنوات تعيش حياة أسرية هادئـة[1] قبل مـولده حيث مـاتت وتركتـه صغيراً فتـولى أبوه تربيته.

ومما يذكر عن حياته أن تربيته المحافظة التي تلقاها من أسرتـه المتدينـة التقية قد أكسبته صفة الحـزم ويقظة الضميـر واعتدال الشخصيـة. كما علمتـه الحذر والاعتماد على النفس، وتعد دعوتـه لاحترام مبـادىء الحريـة واهتمامـه بقضايا السياسة والتربية من بين الآثار الإيجابية لتلك التنشئة التي أشاد بها فيما

(١) تزوج جون لوك من أجنس كين Agness Keene في عام ١٦٣٠ وكـان لوك هـو طفلهما الأول حيث كانت الأم تبلغ من العمر ٣٥ عاماً وتكبر والده بحوالي عشر سنوات غير أنها كانت على ورع وتقوى وخلق، وقد تأثر بها لوك وأحبها غير أنه حفظ حباً كبيراً لوالـده الذي أشرف على تربيته وزوده بمكارم الأخلاق. Ch. Aaron. **John Lock** - errlyyears. p. 2.

بعد في مؤلفاته والتي كان والده قد اتبعها معه فأصبح منذ ذلك الحين يتخذ منها نبراساً للتربية السليمة كما يدعو الناس للاسترشاد بها في تربية أبنائهم.

٢ ـ عاش «لوك» منذ طفولته الأولى في سومرست، ولما بلغ سن الرابعة عشرة من عمره استكمل دراسته في مدرسة وستمنستر، وظل بها فترة من الزمن التحق بعدها بكنيسة المسيح (١) في اكسفورد عام ١٦٤٦ حيث تلقى التعاليم الأرثوذكسية الفلسفية الصارمة التي تكاد تخلو من أية حياة وكانت تتبع في عصره فتأثر بها غير أنه كان يزاولها ويتابعها على مضض وفي كره شديد، وظل لوك مستمراً بهذه الكنسية حتى عام ١٦٥٢ حيث التحق بجامعة أكسفورد فيما بعد.

حصل لوك بعد ذلك على درجة البكالوريوس في عام ١٦٥٦ من جامعة أكسفورد Oxfordبعد مضي أربع سنوات من الدراسة والبحث، ثم حصل على الماجستير في عام ١٦٥٨ حيث عين محاضراً في الدراسات العليا بكليته في [مادتي الفلسفة اليونانية والأخلاق] وكان يتعين عليه أن يظل في هذه المهنة غير أنه فصل منها لاعتبارات سياسية وذلك عام ؟؟؟ (٢).

ومن الجدير بالملاحظة أن اهتمامات لوك بالجوانب العلمية قد زادت في أثناء مزاولته لعمله مدرساً ومحاضراً بالدراسات العليا (٣). فقد اتصل عن

---

(١) Christ churche (ch. Aaron).

(٢) R. I Aaron **John Locke** Second Edition Oxford 1955. p. 5.

(١) كان لوك مهتماً بالنواحي العلمية والتعليمية تشهد بذلك زمالته للجمعية العلمية الملكية، وعلى الرغم من أنه لم يحصل على شهادة رسمية في الطب بيد أنه كان يصب اهتماماً كبيراً على دراسته إذ استفاد من خبراته وشغفه بذلك العلم الذي كان اتجاهه له مدفوعاً بروح الخبرة وحدها مما لم يروق أعضاء الجمعية الطبية، والمشتغلين بالطب في عصره، وليس مستغرباً أن نجد فكرة الخبرة التي لازمته حياته العملية تنسحب بدورها على مجال المعرفة فيذهب بتأثيرها إلى اعتبار الخبرة هي المصدر الأول والرئيسي للمعرفة.

طريق صديقه روبرت بويل بمنجزات ومؤلفات العلم الحديث، وكان الأخير يقيم في أكسفورد بين عامي ١٦٥٤ ـ ١٥٦٨. وكانت منجزات العلم في مجالي الطبيعة والكيمياء قد بلغت زروتها في عصره وبالإضافة إلى الاهتمامات العلمية له فقد كان لوك محباً للحرية، منادياً بحقوق الإنسان؛ ويرجع ذلك إلى آثار تلقيه العلم في وستمنستر وأكسفورد حيث وضع المعهدان تحت إشراف جماعة المتطهرين وكان جون أوين John Owenعميد كلية المسيح من دعاة التسامح الديني، كما كان شغل أوليفر كرومويل O. Cromwell مستشاراً لجامعة أكسفورد من عوامل إشاعة جو من الحرية واحترام حقوق الإنسان والدفاع الحمس عنها[1].

ومما يذكر عن حياة لوك أنه برغم تعدد الجماعات السياسية في المجتمع الإنجليزي في عصره فقد ظل مستقلاً بآرائه عن الانحياز لأي جماعة منها إلا أنه استفاد من آراء مفكري عصره وتأثر بما جاءت به قرائح العلماء والفلاسفة أمثال بيكون Baconوهوبز Hobbesوديكارت Descartesكما انصب اهتمامه كذلك على دراسة اللغات القديمة وقواعد النحو والمنطق الصوري.

ب ـ الاهتمامات الفكرية للفيلسوف وطبيعة العصر:

يجدر بنا قبل أن نتتبع النسق الفلسفي عند لوك أن نلقي ببعض الأضواء على المؤثرات التي تأثر بها فكره، والمنابع التي نهل منها وأهم المجالات التي ولع بدراستها، وما نتج عن آرائه المتنوعة من مؤلفات عظيمة أفادت الفكر في عصره فلسفياً، وعلمياً وأخلاقياً، وسياسياً، وتربوياً.

ففي مجال دراسة اللغة نجده يتلقى منذ حداثة سنه قواعد وترجمة اللغتين اليونانية واللاتينية اللتين اهتم بتعلمهما بشغف كبير ولا سيما وقد درس

---

(1) Aaron, **John Lock** p. 9.

في مدارس إنجلترا في ذلك الحين غير أن هذه الدراسة قد وجهت عنايته إلى مسألة اللغة فأخذ يحللها ويفسر ألفاظها، ويتعمق مضامينها.

فإذا كانت المعرفة هي جملة ما يوجد في ذهن الإنسان من أفكار، وهي تقوم على أساس الواقع الخارجي وليس من الضروري أن تقوم على أساس هذا الواقع، لذلك تعد اللغة شيئاً ضرورياً بالنسبة لاستكمال تحليلنا للمعرفة، وعلى الرغم من رفض لوك للأفكار الفطرية إلا أنه كان يرى أن اللغة مفطورة في الإنسان قد زوده الله بها[1] أي بالاستعداد لها، أما اكتساب لغة دون أخرى فهذا أمر مكتسب واللغة وفق هذا المفهوم لا تولد مع الإنسان بل إنه يولد وهو على استعداد للتعبير بها عن أفكاره، ولذا يمكن القول بأن اللغة مصنوعة صنعها الإنسان - ويذكر لوك أن للغة وظيفتان هما - التذكر والتعبير عن الأفكار[2] وحيث أن أتباع المذهب التجريبي وعلى رأسهم لوك يؤمنون بأولوية الوجود أولاً ثم التعبير عنه ثانية، ولما كانت اللغة تعبر عن الفكر أو المعرفة التي تعبر عن الواقع، ومن ثم فإنها تعبر عن الواقع بشكل غير مباشر.

أما في مجال الفلسفة فقد أثرى الفيلسوف آرائه بما اطلع عليه من أفكار فلاسفة عصره ولا سيما فلسفة الأفكار الواضحة عند رينيه ديكارت، وكان

---

(١) شاعت فكرة فطرية اللغة في الإنسان عند كثيرين من مفكري القرنين السادس والسابع عشر، ويعد فرنسيس بيكون أحد القائلين بها استناداً إلى تأثير الكتاب المقدس من أن الله قد خلق آدم وعلمه الأسماء وتعلم الأسماء هو العلم الأول. لأنه يحمل سر خضوع المسميات لمن يعرفها وينطق بها ولأنه يفترض من ثمة الاتصال بين الإنسان من حيث هو سيد، وبين الطبيعة من حيث هي مملكة تخضع له لكن الإنسان فقد هذه السيادة حين فقد المعرفة. وهو قد حرم من المعرفة ومن السيادة كليهما نتيجة لارتكابه الخطيئة الأصلية. وفكرة ارتباط المعرفة - معرفة الإسم - بالسيادة على المسمى فكرة قديمة قال بها الصينيون الذين يعتقدون حتى اليوم أن للكلمة تأثيراً عملياً في الشيء الذي تطلق عليه - دكتور حبيب الشاروني - فلسفة فرنسيس بيكون - دار الثقافة، الدار البيضاء - ١٩٨٣، ص ٢٩ - ٣٠.

(٢) عزمي إسلام - جون لوك - دار المعارف بمصر. ١٩٦٤ ص ١٢٨.

اهتمامه الشخصي، وقراءاته الفردية هما المصدر الوحيد لتنمية أفكاره فوجد في وضوح الفلسفة الديكارتية وجلائها ثورة على الفكر في عصره الذي تشبع بروح الفلسفة الأرسطية التي سادت العصر الوسيط ـ ومما يذكر عن حياة لوك العلمية واهتمامه بالفكر أنه قضى فترة نفي في (هولندا) انكب فيها على القراءة والبحث واقتناء الكتب وذلك من دخل بسيط كان والده قد تركه له بعد وفاته، بالإضافة إلى أجر سنوي محدود كان يتقاضاه من أسرة شافتسبري وفي تلك الأثناء عكف لوك على البحث والدراسة ومراجعة مذكراته بعمق وتركيز، ومما يذكر أنه راجع أصول كتابه «مقال في العقل البشري» «An essay concerning human understanding» وهو من الأعمال الهامة التي كتبها في حياته.

وقد أسهم لوك بنصيب وافر في إثراء نظرية المعرفة في جانبها التجريبي EXPERIMENTAL فعلى الرغم من أنه قد أغفل خصوبة المنهج الرياضي الذي احتذاه ديكارت، وإسبينوزا، وليبنتز (الفلاسفة العقليين) إلا أنه قد أسهم من جانب آخر في تنمية نظرية المعرفة في صورتها الحديثة فنجده يطالب برفض المبادىء والأفكار الفطرية، ويدعو الناس إلى تأمل فكرها وتعميقه، وقد دفعته هذه الفلسفة إلى الاهتمام باللغة فأخذ يحللها ويحاول تفسير ألفاظها ومعانيها، فميز بين الصفات الأولية والصفات الثانوية، كما قام أيضاً بتحليل فكرة الجوهر وطبق المنهج التجريبي الاستقرائي في مجال فلسفته أسوة بعلماء وفلاسفة عصره أمثال بيكون، وهوبز، ونيوتن، وبوبل، وسيدنهام وغيرهم.

وفضلاً عن اهتمامه بمجالات اللغة والفلسفة والعلم والتربية والسياسة فقد اهتم بالطب بصفة خاصة حيث دفعه اعتلال صحته منذ طفولته إلى مثل هذا النوع من الدراسة في محاولة للحفاظ على حياته، وقد شجعته صداقته بالطبيب توماس سيدنهام على هذه الدراسة وكان الأخير ممن يرفضون الأسلوب التقليدي في ممارسة الطب، وينادي بالاعتماد على الملاحظة OBSERVATION في ممارسة العلاج، وربما يكون هذا الاتجاه في ممارسة

الطب قد أثر على لوك في صياغته لفلسفته التجريبية[1] فدرس الطب عملياً على نفقته الخاصة في الجامعة، وحصل بصعوبة على درجة علمية فيه في عام ١٦٧٥ استطاع بمقتضاها أن يمارس مهنة الطب عملياً لكنها لم تصبح مهنته الرئيسية بل كان يزاولها من حين لآخر، وتعد رواية إنقاذه لحياة صديقه لورد شافتسبري[2] Shaftesburyأحد العلامات الرئيسية على طريق اهتمامه بالطب العملي، فقد أجرى للورد عملية جراحية أنقذ بها حياته كان من نتائجها أن كسب ثقته فأوكل إليه بشئون أسرته، كما عهد إليه بإدارة سكرتارية مستعمرة أمريكية استطاع لوك أن يمارس في صياغة دستورها ما ولع به من مبادىء حب الحرية، واحترام حقوق الإنسان إذ نص فيه على آراء جديدة تضمنت مبادىء الحرية والتسامح الديني.

أرسل لوك بعد ذلك في بعثة دبلوماسية في عام ١٦٦٥ مارس فيها السياسة عملياً، حيث عمل سكرتيراً لهذه البعثة برئاسة سير والترفان Sir Wal-ter Vaneالتي سافرت إلى حاكم براندنبرج تطلب منه التحالف معه أو إلتزام الحيدة في حرب هولندا، ومن ممارساته السياسية أيضاً أنه اختير للذهاب إلى أسبانيا لشغل منصب سكرتيرا للسفير عام ١٦٦٦، كما أختير عضواً في الجمعية الملكية عام ١٦٦٨، وقد اكتسب الفيلسوف الكثير من الخبرات السياسية في هذا المجال. كما حركت فيه المشاعر الإنسانية، ومبادىء الحرية والمساواة والحق والعدل التي كشفت عنها مؤلفاته السياسية فيما بعد.

أما في مجال السياسة وهي من المجالات التي أولاها لوك عناية خاصة فقد كان ثائراً سياسياً، وصاحب آراء ومبادىء في الحرية والمساواة، وقد

---

(١) د. محمد علي أبو ريان ـ الفلسفة الحديثة ـ دار الكتب الجامعية ـ طبعة أولى ١٩٦٩ ص ١٠٨.

(٢) التقى لوك بلورد آشلي Anthony Ashley cooper عام ١٦٦٦ صدفة في أكسفورد وبعد عام واحد فقط أصبح لوك من أكثر أصدقاء اللورد ومستشاريه ومن أكثرهم تمتعاً باحترامه بوصفه طبيبه الخاص والمستشار الخاص في المسائل العامة. Aaron, p. 18.

احتمى في هذا الموقف السياسي باسم صديقه لورد شافتسبري الذي أسهم بدور كبير في ميادين السياسة والأخلاق والاجتماع، كما كان من بين المؤثرين سياسياً واجتماعياً في عهد شارل الثاني Charles II ملك إنجلترا. ويبدو أن مفهوم عصره كان لا يشجع على الأعمال السياسية والثورية فكان المدافع عن الحرية مهاجماً للسياسة، بل ومارقا عن الدين، ولما كان لوك ثائراً متحمساً فإن حماية صديقه شافتسيري ومساندته له في آرائه السياسية والثورية كانت واحدة من العوامل التي أمنته شر السلطة وساندته فترة من الزمن، لا سيما وأن صديقه كان مقرباً للملك فقد عمل حاملاً لأختامه عام ١٦٧٢.

وقد تضمنت كتابات لوك السياسية تبريراً فطرياً للآراء السياسية التي يعتنقها الذين يبغون التخلص من حكومة «آل ستيوارت» المستبدة المتعسفة حتى يستبدلوها بملكية محدودة السلطات.

وجدير بالذكر أن الفيلسوف قد خصص بحثيه عن الحكومة لشرح وتفسير وتفنيد الأوضاع السياسية في بلاده وكان هدفه «تطبيق نظرية الحكم المطلق» التي اختلفت عن وجهة نظر هوبز في السلطة. بل عبرت عن السلطة الأبوية وهي السلطة الشبيهة بسلطة الأب على أبنائه. والتي تستمد مباشرة من السلطة التي منحها الله لآدم.

ويحاول لوك في بحثه عن الحكومة أن يبحث في مسألة السلطة الأبوية من ثلاث نواحي فيشير إلى:

أولاً ـ أن سلطة الأب على الأبناء ليست مطلقة أو على الأقل عندما يبلغون سن الرشد[1].

ثانياً ـ أن العلاقة بين الملك ورعاياه ليست مماثلة للعلاقة بين الأب وأبنائه.

---

(١) O, Connor D - J, J, locke d 6.

(١) Locke. **Second Treatise on civil governement** P 52 — 35.

ثالثاً ـ أنه من الصعوبة الشديدة تعقب الانتقال المباشر للسلطة الأبـوية من آدم إلى الملك شارل الثاني. ويحاول لوك في بحثـه الثاني أن يـوضح رأيـه الخاص في هذه المسألة.

وفي عرضه لمبادئه السياسية يتبع لوك التقليـد شبه التـاريخي الذي كـان متبعاً في عصره، فيتصور أن المجتمعات قد ظهرت باعتبارها حالـة من حالات الـطبيعة الفـطرية[1] ونتيجـة للعقد الاجتمـاعي الذي اتخـذه الأفراد مشتـركين للخضوع لحاكم، أو عدة حكام في سبيل الحصول على مصالح بعينهـا. لكن هوبز قد دلل على أن الحاكم في مثل هذه الحالة لا يمكن أن يكون إلا حاكماً مطلقاً وإذا كان لابد من كبح جماح بعض أعضاء المجتمع بطريقة فعالة، فـلا بد أن يتمتع الحاكم بسلطة مطلقة فوق الجميع تتميز بما يلي:

أولاً: أن يتمتـع الـحـاكم بحقـوق محدودة كغيـره من النـاس بـواسـطة قـانـون الطبيعة.

ثانياً ـ أنـه قد فـوض السلطات على أنها ضـرب من الثقة تستخـدم لخير أفـراد المجتمع، وبالتالي يمكن إسترداد تلك السلطات إذا زالت الثقة.

وعلى الرغم من أن لوك كان معارضـاً لنزعـة السلطة المطلقـة إلا أنه لم يكن بـالطبـع ديمقراطيـاً بأي معنى من المعـاني، فضلاً عن أنـه لم يكن على إيمان يخلو من النقد بـالمجالس المنتخبـة، وأقل من ذلـك إيمانـه بالجمـاهير عـامة كمـا أنه لم يكن يعتقـد بضـرورة وضـع السلطة في أي مجتمـع في يـد شخص أو مجمـوعة أشخـاص كما كـان يعتقد هـوبز؛ ويـرجع ذلـك لاعتقاده بعقلانية السلوك على عكس هوبز.

بعد أن أبرزنا دور لوك في مجـال العمل السيـاسي نعود لنبين مجهـوداته في مجال الأخلاق الـذي يتسم بالـطابع العملي، حيث يؤكـد على الغايـة من

---

(١) Ibid., p. 19 - 20.

الفعل الأخلاقي والأهداف التي يسعى لتحقيقها، وأنه يجب على الإنسان أن يمارس سلوكه الأخلاقي على أكمل وجه من حيث أن لديه قدرات تمكنه من بلوغ ذلك. وإن كانت هذه المعرفة تتوزع على الناس بنسبية وتفاوت. وفي هذا الموقف الأخلاقي العملي نجد إتفاقاً بين لوك وديكارت من حيث منادتهما بتقرير غاية السلوك الأخلاقي وأهدافه غير أن الأول ينتقل بعد ذلك إلى إقامة علم نظري للأخلاق ينتقل فيه من منطق الواقع (الأخلاقي) إلى منطق الرياضيات النظري في مجال الدراسات الأخلاقية، وهو بذلك يربط بين مناهج الرياضة والدراسات الأخلاقية النظرية بما يسمح بإقامة نظام من الأخلاق مؤسس على المعرفة الحدسية أو البرهانية.

ويختلف النسق الأخلاقي عند لوك في هذا الصدد عن مذهب الأخلاق كما ورد عند دافيد هيوم David hume الذي ينظر إليها بوصفها علماً تجريبياً يتميز بالنسبية، ويرتبط بالدراسات السيكولوجية لأنه يستند إلى الغريزة، ويعتمد على المشاركة أو التعاطف بين البشر لتحقيق سعادتهم ومنفعتهم.

ووفقاً لذلك تقوم الأخلاق عند هيوم على تحليل الانفعالات والعواطف لمعرفة نتائجها التجريبية، لذلك تنتفي في فلسفته الأخلاق النظرية وتحل محلها الأخلاق النسبية التجريبية.

وفضلاً عن آراء لوك في المجال الأخلاقي نجدهينشر أفكاره في التربية ويضمنها كتابه «آراء في التربية Some Thoughts concerning Education» وقد نشره عام ١٩٦٣ [1] مدافعاً فيه عن حق الفرد في حريته الشخصية والفكرية، ومنادياً باستقلال التعليم عن الكنيسة، وعن الحكومة أيضاً. وهو يقترح في رسائله لكلارك بعض الأفكار التي تبناها عن الفيلسوف روسو وعدلها وأخرجها

(١) وكان هذا الكتاب يشتمل على مجموعة من الرسائل أرسلها لوك إلى صديقه إدوارد كلارك Edward Clarke.

في صورة جديدة في مؤلفه «إميل Emileأو في التربية» ويمكن أن نوجز آراء لوك وأفكاره في التربية في النقاط التالية وهي:

١ ـ محاولة إدخال مناهج جديدة للتعليم تختلف عن المناهج الروتينية القديمة التي كانت متبعة في المدارس في ذلك الحين.

٢ ـ محاولة إمداد التلاميذ في المدارس بآخر تطورات العلم في عصره.

٣ ـ التأكيد على أهمية العنصر الأخلاقي في التربية السليمة ولهذا فقد حرص على تزويد التلاميذ بالقيم والفضائل الأخلاقية.

٤ ـ الاهتمام بالصحة الجسمية، والإيمان بأن العقل السليم في الجسد السليم [١].

٥ ـ رفض استخدام وسائل الإرهاب والتخويف في عملية التعليم حتى يشب الطفل متمتعاً بالمقومات الكاملة للشخصية. كما رأى أن تعليم المبادىء القويمة [٢] لا يتم إلا عن طريق القدوة الحسنة والمثال الطيب وليس بسرد الموعظة والإرشاد.

٦ ـ عدم الاهتمام بدراسة اللغتين اللاتينية واليونانية [٣].

ومن النظر إلى تلك المفاهيم التربوية التي نادى بها لوك نجد بينها وبين قواعد وأصول التربية المتبعة في العصر الحديث الكثير من وجوه الشبه فالوسائل التربوية الحديثة تتبع نفس المنهج الذي كان ينتهجه لوك في مسار العملية التعليمية والتربوية في المدارس.

وبالإضافة إلى نشاط لوك في المجالات الفكرية المتنوعة فقد أتاحت له

---

(١) Locke, the sound mind in the sound Body p. 150, (from **Some thoughts concerming education**).

(٢) Ibid p. 73.

(٣) Ibid p. 69.

أسفاره فرصة التعرف على رواد الفكر في عصره فقد غادر إنجلترا إلى فرنسا في عام ١٦٧٥ وظل بها أربع سنوات تعرف فيها على نيقولا مالبرانش، وبيرنييه، وتوماس هيربرت، الذي صار فيما بعد ايرل أوف بمبروك والذي أهداه لوك كتابه «مقالة في العقل البشري» كما تأثر كثيراً في أثناء وجوده بفرنسا بتلاميذ جاسندي Gassendi وقرأ الفكر الديكارتي الذي شغف به ولما عاد بعد إقامته في فرنسا إلى بلده انجلترا وجد أن المناخ السياسي لا يناسبه إذ حرم من نشر كتبه التي رأت فيها السلطة حماساً زائداً وخروجاً عن مناهج الكتب المقدسة [1].

وكان القبض على شافتسبري ومحاكمته بتهمة الخيانة من بين الأسباب التي دفعت لوك للفرار من إنجلترا واللجوء إلى هولندا في عام ١٦٨٣ (هذا البلد الهادىء الجميل على حد قول ديكارت) وعلى الرغم من أن معظم مؤلفاته ظهرت هناك إلا أنه لم يشعر بمعنى الاستقرار الكامل في هذا البلد الذي أحبه الفلاسفة ورجال الفكر لأن حكومته كانت قد وضعت اسمه في القائمة السوداء وطالبت هولندا بتسليمه إليها مما اضطره إلى محاولة التستر وإخفاء شخصيته تحت إسم مستعار هو دكتور فان در لندن Dr van Derlinden [2]. وبعد هجرة طويلة عن بلده عاد لوك إلى إنجلترا بعد نجاح ثورة ١٦٨٨ وتولى وليام أورانج عرش البلاد، وتوفي بعد رحلة كفاح وعمل في منزل أسرة ماشام التي كان يقيم عندها بصفة دائمة وذلك في عام ١٧٠٤ أو بعد عامين من عزل الملكة آن.

د ـ مؤلفاته :

كتب لوك مؤلفات عديدة في شتى موضوعات المعرفة الإنسانية في

---

(١) Maurice cranston, **Locke on politucs religion and education** - p. 3. N. Y. F. E. 1965.

(٢) Maurice cranton, p. 13.

نظرية المعرفة، والسياسة، فضلاً عن الأخلاق، وكذلك التربية والدين وغيرها من مؤلفات.

وهذه قائمة بمؤلفات الفيلسوف مع تاريخ صدورها، وفكرة موجزة عن موضوعاتها ومناسبات ظهورها: ـ

١ ـ «المقالة في العقل البشري»

An Essay concerning human understanding

وقد ظهرت المسودة الأولى من هذا الكتاب الهام في نهاية عام ١٦٦٧ وكانت بعنوان:

An Early Draft of locke's , together with excerpts from his journals.

أما المسودة الثانية للمقالة فقد ظهرت في عام ١٦٩٠ تحت عنوان.

An Essay concerning the understanding knowledge opinion and assent.

وقد ظل لوك منذ عام ١٦٧١ يؤلف في مسودتيه القصيرتين وتوسع فيهما على مدى ما يقرب من عشرين عاماً حتى عام ١٦٩٠، وهو تاريخ ظهور أعظم أعماله «المقال في العقل البشري» ثم ظهر بعد ذلك في طبعة رابعة عام ١٧٠٠ وعلى الرغم من ظهور المقال في صورة مهوشة، ضخمة، مليئة بالتكرار مما يدل على إنه قد كتب على فترات متباعدة إلا أنه قد صيغ بأسلوب عالم كبير، وفيلسوف متزن واضح، فأصبح المؤلف الرئيسي والشهير للوك منذ عصره وحتى الآن[١] وينقسم هذا المؤلف الضخم إلى أربعة أقسام يبحث في الأول نظرية الأفكار والمبادىء الفطرية، أما الثاني فيتناول فيه مصادر الفكر الإنساني، ويعرض في الثالث للعلاقة بين الفكر واللغة، أما القسم الأخير فيبين نظرية المعرفة. وقد أثير حول كتابه المقال ثمة نقد منها إنه لم يكن

---

(١) Alexander campell Frasser. **J. Locke. an** Essay. p. 1.

حريصاً على كتابة تفصيلات وقائعه، كما لم يكن دقيقاً في التوصل إلى النتائج التي ينطوي عليها موقفه[1].

٢ ـ رسالة في التسامح :

«Aletter concerning Tolerations ».

ترجمها W. M popple عن الأصل اللاتيني التي كتبت به تحت عنوان :

«E istola de Iolerantia ad clarissimum virum»

وقد ظهرت بلغتها اللاتينية وترجمت في عام ١٦٨١ وبعدها نشر لوك رسالة ثانية في التسامح عام ١٦٩٠ Asocond letter Concerning toleration ثم نشر بعدها بعامين رسالة أخرى بعنوان «رسالة ثالثة في التسامح» «a third letter for toleration» وذلك في عام ١٦٩٢.

وظهر له جزء من الرسالة الرابعة بعد وفاته حيث لم يكن قد استكملها وكتاب سياسي آخر عن «الدساتير» وكان قد أتمه عام ١٦٧٣ ولم يقم بنشره فنشروا جميعاً بعد وفاته في عام ١٧٠٦.

٣ ـ رسالتين عن الحكومة :

«two treatises of Government».

وقد ظهرت في عام ١٦٩٠، وتكرر ظهورها عام ١٦٩٤..

وتهتم مجموعة المؤلفات السالفة ببحث الموضوعات السياسية والثورية التي كانت مثار بحث وتساؤل وثورة في عصر لوك، ويكفي أن نذكر أن تفكيره في كتابه «بحثان عن الحكومة» إنما قد دفعه إليه ما آل إليه حاله السياسي من شهرة وما اكتسبه من خبرة بالعمل السياسي وخاصة إبان قيام ثورة المحافظين

---

(١) A - D Woozeley, **John Locke** - Essay p. 31.

في عام ١٦٨٨ [1] .

٤ ـ بعض أفكار عن التربية :

«some Thoughts concerning Education »

وظهـر من خلال طبعتين الأولى في عـام ١٦٩٣ والثانيـة في عام ١٦٩٥ ويعرض فيه لأهم مبادىء التربية .

٥ ـ معقولية المسيحية :

Reas nabèness of christianity

وقـد ظهر في عـام ١٦٩٥ وكان لهـذا المؤلف دفاعـان عن رأي صاحبـه ظـهـر الأول فـي عـام ١٦٩٥ First Vindication أمـا الـثـانـي Second Vindication فقد ظهر عام ١٦٩٧ .

٦ ـ مجموعة كتب نشرت للوك بعد وفاته عام ١٧٠٦ :

أ ـ كيف يعمل العقل

of the Conduct of the Understanding.

ب ـ دراسة لرأي مالبرانش في رؤية الأشياء في الله

An Examinatien of Malebranches opinion of seeing all Things in god.

جـ ـ بحث في المعجزات

A Discourse on miracles

د ـ جزء من رسالة رابعة في التسامح

Part of AFourthletter on Toleration

(وقد سبق ذكر هذا الجزء في أعمال لوك السياسية) .

---

(١) A aron **John locke. p. 17.**

هـ ـ ذكريات تتعلق بحياة شافتسبري

Memoires relating to the life of Antony first earl of shaftesbury

٧ ـ وفي عام ١٧١٤ نشرت الآثار الباقية من جون لوك

The remains of John Locke [(١)]

(١) د. عزمي إسلام ـ جون لوك ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ص ٢٢١ .

الفَصْلُ الثّاني

نظريّة المعرفة

١ ـ مبحث المعرفة ـ رؤية عامة.
٢ ـ مفهوم مبحث المعرفة.
٣ ـ المدخل إلى نظرية المعرفة عند لوك.

١ ـ مبحث المعرفة : رؤية عامة :

قبل أن نوضح أنواع وحدود المعرفة عند لوك، يجدر بنا الإشارة إلى مبحث المعرفة بصفة عامة حتى يتسنى لنا تحديد مسلكه في هذا المبحث الذي يدور موضوعه حول إمكان قيام المعرفة وحدودها، ومبلغ صحتها، والطرق المؤدية إلى اكتسابها. وتجدر الإشارة إلى أن هذا المبحث قد اختلط لفترة من الزمن مع مبحث الوجود، بيد أن ظهور حركات الشك قد أدت بالعقل الإنساني إلى البحث في أدوات المعرفة، ومسالكها قبل الخوض في مشاكل الوجود الحقيقية.

٢ ـ مفهوم مبحث المعرفة Epistem logie[1] :

يختص هذا المبحث بالطرق المتعلقة بالمعرفة، وهي ثلاثة يبحث الأول فيها عن إمكان قيام المعرفة، وحدودها ومدى صحتها. ويبحث الثاني في الطرق الموصلة إلى اكتسابها، أما الطريق الثالث فيبحث في موضوعات المعرفة، أو طبيعتها ويرتبط مبحث المعرفة بالوجود ارتباطاً وثيقاً عن طريق هذا المسلك ـ البحث في موضوعات المعرفة.

وقبل أن ننتقل إلى بحث موقف «لوك» في ضوء هذا المبحث يجدر بنا أن نوضح بإيجاز هذه الطرق الثلاثة التي يتكون منها هذا المبحث.

أ ـ إمكان المعرفة :

يختص هذا الطريق بإمكان المعرفة، وحدودها، ومدى صحتها، ويتناول المعرفة في هذا الطريق أتباع مذهب اليقين (الدجماطيقيين) (Dogmatisme)الذين يرون أن كل معرفة عقلية أو حسية صادقة تماماً. ويندرج تحت هذه الطائفة أصحاب مذهب اليقين من المعروفين بالنقديين

---

(١) Epistemologie - Epistemology.
(نظرية المعرفة ـ فلسفة العلوم).

(Criticisme)وهم الذين يرون ضرورة تعيين حدود المعرفة الإنسانية قبل الخوض في مسألة ما وراء الحس. كما يتابع نفس الطريق أتباع مذهب الشك (المتشككون) (scepticisme)الذين ينكرون المعرفة ويتعارضون في اتجاههم مع أصحاب مذهب اليقين، كما يذهبون إلى أن الفرد مقياس المعرفة، وهم ينقسمون إلى ثلاث طوائف هم: أصحاب الشك الهادم، والقائلين بنسبية المعرفة (Relativite de la Connaissance)، ثم اللاأدريون (Angosticisme)، أما الطائفة الثالثة فهم أتباع مذهب الشك المنهجي Doute Methodiqueوهذه هي الفرق، وأتباع المذاهب التي ينطوي عليها الطريق الأول من مبحث المعرفة المتعلق بإمكان قيامها وحدودها ومدى يقينها.

ب ـ مسالك المعرفة:

يختص هذا الطريق بالبحث في الطرق الموصلة إلى اكتساب المعرفة، وهو يتصل بمشكلات الإحساس، والخيال، والذاكرة، ومشكلة الإدراك العقلي، وكذلك الحدس بأنواعه المختلفة.

وتنقسم الآراء في هذا الطريق إلى ثلاثة اتجاهات كذلك هي اتجاه العقليين، واتجاه الحسيين، ثم النقديين، أما العقليون فيرون أن العقل المستقل عن التجربة هو مصدر المعرفة، في حين يرى الحسيون أن الحس هو المصدر الوحيد لها، أما النقديون وهم أتباع الاتجاه الثالث فيردون المعرفة إلى الحس والعقل معاً، ويحددون دور كل من الطرفين فيها [1].

جـ ـ طبيعة المعرفة:

أما الطريق الثالث من مبحث المعرفة فإنه يتعلق بدراسة طبيعتها. أي حقيقة موضوعها. وينقسم الفلاسفة في هذا الموضوع إلى أربع فرق هي

---

(١) محمد علي أبو ريان: الفلسفة أصولها، ومبادئها، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٧٨ ص ٢٠٦.

الـواقعيون ثم المثـاليون، وأصحـاب المثـاليـة المتعـاليـة، وأصحـاب مـذهب الظواهر.

ويـرى الواقعيـون أن موضـوع المعرفـة مستقـل عـن قوانـا العارفـة. أمـا الفريق الثاني (المثاليون الذاتيون) أو (التصوريون) فيرون أن موضوع المعرفـة مطابق لأفكارنا. في حين يرى الفريق الثالث الذي يمثله أتباع المثالية المتعالية أن موضوع المعرفة يجاوز نطاق الحس، والتجربة في حين يرى الفريق الـرابع لأتباع مذهب الظواهر أن موضوع المعرفة ليس مستقلاً عن إدراكنا كما أنه ليس أفكارنا كذلك، لكنه يرجع إليها بطريقة معينة.

٣ ـ المدخل إلى نظرية المعرفة عند لوك:

ينصب اهتمام جون لوك على البحث في أصل المعرفة الإنسانية ويقينها وحدودها. وقد رأى أن على الفلاسفة ألا يتجاهلوا العلوم الطبيعية بل يجب أن يضعـوا نصب أعينهم تأثيـر الكشوف العلميـة على فلسفـاتهم بـل وعلى الآراء العـاديـة التي تعبـر عن الـذوق (الفـطري)، وأن الحكم على العـالم يجب أن يكون في نفس درجة حكم العالم الطبيعي عليه، وهذا الرأي يشبه الفكرة التي سـادت العصر الـوسيط عن (الماهيـة الإسمية للجـوهر، والتي تعني الصفـات الملحوظة التي تحدد الإستعمال العـادي لإسمها الخـاص ولا شيء عدا هـذه الصفـات، أما المـاهية الحقيقيـة فـإنهـا تتـألف من جهـة أخـرى من التـركيب الفيـزيقي لأجزائهـا غير المحسـوسة. ومن هـذا المفهـوم يؤسس لـوك مـوقف فيزيقي أو جزئي من المادة فيجعل منها حقيقة ميتافيزيقية مطلقة وهذا هـو الموقف، الذي نقده باركلي G. Berkely [1] بشدة عند لوك على الرغم من أنـه

(١) باركلي George Berkeley فيلسوف اللامادية Immaterialism ولا يعني هذا المسمى أن مذهبه ينكر المحسوسات، وإلا لما أدركناها كمـا أنه لا يحـول الأشياء إلى معـاني، بل العكس يحـول المعاني إلى أشيـاء، فـالشيء ليس لـه وجـود مـادي مستقـل عن إدراك الإنسـان لـه، غيـر أن مـذهب بـاركلي ينتهي بـه إلى ضـرب من المثـاليـة القـريبـة من=

ظل منذ القرن السابع عشر يمثل إضافة جديدة ومبتكرة للنظرة العلمية الواعية للعالم وسمة بارزة من سمات النهضة الأوروبية.

أ ـ صورة العالم في فكر لوك:

يذهب لوك إلى أن العالم الفيزيقي يتكون من كثرة لا متناهية من الأجسام المادية التي تتكون من جسيمات أو «جزئيات لا محسوسة» تدرك على أنها أجسام غاية في الصغر. ويعمل هذا النظام المادي الطبيعي بصورة آلية ويمثل الواقع أو الدافع علة حركة هذه الأشياء التي تعمل في الطبيعة ومن ثم يمكن النظر إلى الأشياء العادية باعتبارها آلات وعلى نحو ما أشار لوك إلى هذا النظام من الأجسام التي تتفاعل بصورة مادية فقد أشار إلى وجود نوع آخر من الجواهر اللامادية التي يترابط بعضها بطريقة غامضة مع أشياء مادية جزئية هي الأجسام الإنسانية، ويذكر أن أعضاء الحس تتنبه بطريقة آلية فتحدث في الإنسان إحساسات مختلفة يشعر بها أو قد تحدث في ذهنه أفكاراً معينة يسميها لوك بأفكار الإحساس التي يضع في مقابلتها أفكاراً أخرى هي ما تعرف بأفكار التأمل.

معنى ذلك أن لوك قد صنف الأفكار إلى نوعين في الذهن يرجع كل

- الأفلوطينية حينما يتصور أن هذا العالم موجود في العقل الإلهي اللامتناهي، وباركلي فيلسوف مثالي يرجع الوجود إلى الإدراك Perception فوجود الأشياء يعني إدراكها إذ لا وجود لغير المدرك ولذلك فإن المادة عنده لا تدرك في ذاتها بل تمثل معنى مجرد فحسب (لا يمكن تصوره بدون كيفياته)، بهذا النص يرد باركلي على لوك وعلى ديكارت أيضاً، فهو يرفض أن تكون الكيفيات مثل اللون والطعم والرائحة ثانوية أو ذاتية من حيث وجودها بالنسبة للناظر أو المتذوق فحسب إذ أن الحرارة ليست في الجسم بل في الشيء الذي يحس والدليل على ذلك أن الشيء الذي يبدو لي صغيراً حين أنظر إليه من بعد كبير قد يبدو لي كبيراً حين أقترب منه وهنا ينكر باركلي الكيفيات الأولية والثانوية ويبقى على فكرة واحدة وهي أن العالم مجموعة أفكار، ومعنى ذلك أن الأشياء إنما توجد قياساً على عقل يدركها «Berkeley **Treatise** para 3».

Frederiek copleston S, J. **A History of philosophy** vol. 5, p. 11 - 31.

منهما إلى التجربة التي تعتمد على الملاحظة، التي تكون على نوعين أحدهما خارجية EXTERNAL موضوعية OBJECTIVE مصدرها الحس الظاهر SENSATION[1]. والثانية داخلية Internal ذاتية SUBJECTIVE مصدرها التفكير Reflection[2]. ولا يعني ذلك أن الأفكار التي توجد في العقل يكون مصدرها الأولى دون الثانية، بل يرجع مصدرها إلى التجربة الخارجية والتأمل الداخلي. ووفقاً لذلك ترد المعرفة برمتها إلى الحس[3].

---

(١) AN Essay Book II chap 23 p: 178.

(٢) Ibid.

(٣) Morris. Gr. **Locke, Berkeley and hume** Oxford, University 1931. p. 34.

ب ـ لوك والخبرة الحسية (مصادر المعرفة):

رأينا مما سبق كيف حلل لوك الخبرة الحسية إلى مصدرين أساسيين هما أفكار الإحساسات وأفكار التأمل (الإستبطان) ـ كما أكد على رد المعرفة كاملة إلى الحس فهو يتصور أن العقل صفحة بيضاء Atabula Rasa يكتب عليها الحس والتجربة بآلاف الطرق»[1] فهو مثل صفحة بيضاء تبدو خالية تماماً من كل كتابة عليها، وخالية أيضاً من أي أفكار، ونحن الذين نملأ صفحة العقل الخاوية البيضاء بما تمده لنا حواسنا عن أشياء العالم الخارجي. وبهذا الموقف يعد لوك مؤسس المذهب التجريبي في الفكر الفلسفي الحديث.

ولا يعني قول لوك بخلو العقل إلا من أفكار الحواس أنه يقف سلبياً في عملية المعرفة، بل على العكس فإنه يتضمن إستعدادات كبيرة، وعمليات دقيقة، من تذكر وتخيل وتصور ومقارنة وقدرات كثيرة كالقدرة على التبسيط والتركيب والتشخيص والتجريد، وهي ليست عمليات مكتسبة مثل الأفكار من خارج العقل، بل هي أمور عقلية نبعت من طبيعة العقل ذاتها.

ولكن كيف يتسنى للأشياء المادية التي تحسها حواسنا ونشعر بها أن تتحول إلى مجرد أفكار في أذهاننا؟

يقول لوك إن أفكار الإحساسات تنتج من تأثير الأشياء المادية الجزئية الموجودة في العالم الطبيعي حولنا فنحن نرى أشياء كثيرة حولنا مثل المقاعد والنوافذ والطرق والأشخاص نرى كل هؤلاء بحواسنا، ومن خلال ضوء معين ترى العين الأشياء، كما تشعر اليدان بالبرودة والسخونة عن طريق اللمس، ويشعر الفم بالطعوم عن طرق التذوق وهكذا تفعل سائر الحواس التي خلقها الله فينا[2]، ويحدث بعد الرؤية أو الشعور بالأشياء الجزئية أن تؤثر هذه الأشياء

---

(١) An Essay. p 160.

(٢) An Essay, Book II ch 8 para 26 p. 18.

على حواسنا فينتقل هذا الأثر إلى مراكز الإحساس في المخ ومن ثم تنتج «أفكاراً» في عقولنا مستمدة من الصفات الحسية الموجودة في الجسم الخارجي مثل حجمه، ولونه، وطعمه، ورائحته، ودرجة صلابته أو ليونته وغير ذلك من أمور.

يرى لوك أننا لا نستطيع تفسير هذه العملية بوضوح كاف من حيث أنها تعزى إلى الله، وتتم بفضله ومن ثم فلا ينبغي علينا الخوض في مسائل أكبر من مستوى معرفتنا الإنسانية يكفينا أن نعرف فحسب كيف تتكون الأفكار في عقولنا دون الخوض في مسائل فسيولوجية سيكولوجية يختص بها علم النفس والفسيولوجيا أكثر مما تخص مجال الفلسفة. وعلى أية حال فإننا نستطيع أن نجمل موقف لوك من الخبرة الحسية على الوجه التالي:

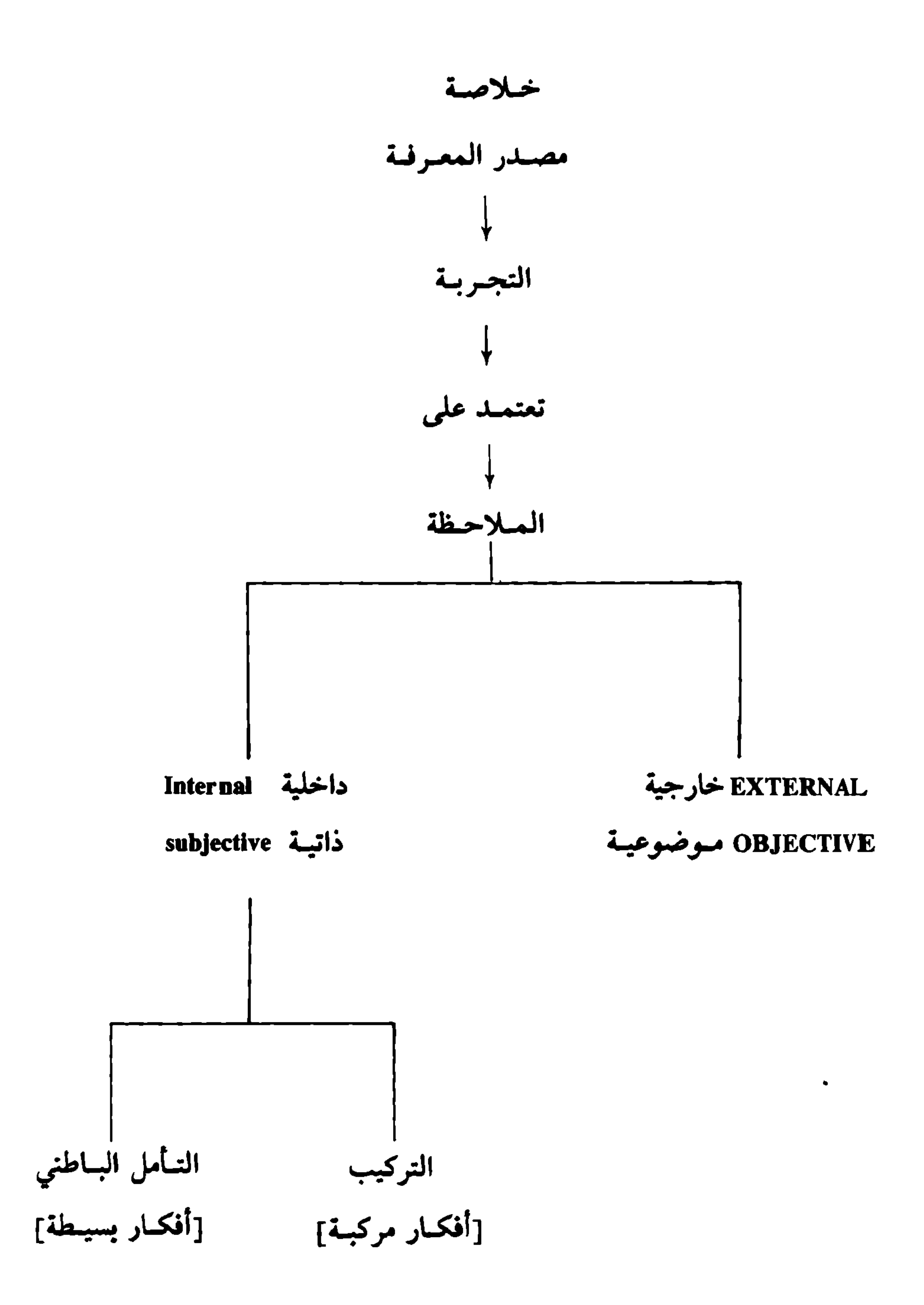
أولاً: وجود شيء مادي جزئي محسوس.

ثانياً: إدراكه بواسطة حاسة إنسانية (بصر - سمع - شم - لمس - تذوق).

ثالثاً: ترجمته عن طريق مراكز الإحساسات في المخ في ضوء صفاته الحسية كاللون والطعم والرائحة والصلابة والليونة والشكل.

رابعاً: تكون فكرة في المخ (الذهن) عن هذا الشيء.

أما أفكار التأمل أو الإستبطان فهي تلك الأفكار التي تنتج لنا بعد عملية التأمل في الأشياء التي سبق أن أدركناها عن طريق الحس فمثلاً عندما نرى تفاحة حمراء، أو ليمونة صفراء، ونقر بأن لونها أصفر فنحن في هذا التقرير إنما نكون قد قمنا بعملية تأمل واستبطان داخلي لهذا اللون الأصفر ولذلك يصبح الإدراك الحسي باعتباره حصيلة عقلية فكرة من أفكار الاستبطان، وهناك كثير من الأفكار تتعلق بقدرة الإنسان على التصور والتأكد، والتخيل، والشك، وغيرها من قدرات وملكات تخص العقل.


خـلاصـة
مصـدر المعـرفـة
التجـربـة
تعتمـد على
المـلاحـظة
EXTERNAL خارجية
OBJECTIVE مـوضوعيـة
داخلية Internal
ذاتيـة subjective
التركيب
[أفكـار مركبـة]
التـأمل البـاطني
[أفكـار بسيـطة]

نقد:

رأينـا كيف قسم لـوك التجـربـة إلى نـوعين همـا: حسيـة تعتمـد على الانـطباعات الحسية التي تأتي من الخارج، وتأملية توجد في ذهن الإنسـان، وتعني العمليات العقلية التي تتكون منها أفكار نتيجة للتأمل الذاتي، والمقصود بـالعمليـات العقليـة تلك التي تعتمـد على التفكيـر وتقـوم على ربط هـذه الإحساسات وتكوين أفكار عنها.

ويمثل وجود التجربة الباطنية اختلافاً كبيـراً بين معنى التجربـة عند لـوك ومعناها عند الفلاسفة الحسيين الذين غالوا في اتبـاع النزعـة الحسية، وذهبـوا إلى أن الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة من أمثال توماس هوبز الإنجليزي وكـونديـاك الفرنسي بينمـا نجد أن لـوك قد تـوسع في معنى الحـواس فجعلها تشتمل على عنصري الحس والفكر معاً، ويجب ملاحظة أن توسعه في مفهوم الأفكـار قد دفعـه تلقائيـاً إلى الاقتراب من الاتجـاه العقلي الميتافيـزيقي الذي سبق أن رفضه وخاصة ما يتعلق بمشكلة الأفكـار والمبادىء الفـطرية، وكـذلك المعـرفة الأوليـة، وقد أدى بـه ذلك إلى الاعتـراف بفكرة الجـوهر الـروحي أو المـادي الذي تصـور وجوده غـامضاً وراء مـظاهر الأشيـاء الخارجيـة ويستحيل إدراكه بالحس بل بالبرهان العقلي.

والأمر الذي لا شك فيه أن لوك قد دفع الإنسان إلى تـأمل ذاتـه لمعرفـة كيف يفكر ويحلل، فأصبحت الـذات في هذه الحـالة مـوضوعـاً لنفسها وعلى الرغم من إشارته للأفكار الميتافيزيقية، أو التـأمل فـإنه لم يكن على ثقـة كبيرة فيها[1] فقد كانت التجربة الحسية هي مصدر المعرفة عنده.

---

(١) Russel. B. **History of Western philosophy** London Allon unwin fourth Edition 1954, p. 633.

جـ ـ رفض لوك للأفكار والمبادىء الفطرية:

يعالج لوك في الجزء الأول من مؤلفه «مقال في الفهم الإنساني» نظرية الأفكار والمبادىء الفطرية (النظرية والعملية) فيرفضها بشدة مؤكداً على أولوية المعرفة الحسية التجريبية.

وقبل أن نخوض في معالجة هذه المشكلة يجدر بنا أن نعرض في عجالة سريعة لعدد من الموضوعات المتعلقة بالمبادىء الفطرية مثل تعريفها وعرض نشأتها التاريخية، ثم موقف لوك منها.

١ ـ معنى الأفكار الفطرية:

تعني هذه النظرية في تاريخ الفكر الفلسفي: أن الإنسان يولد وفي عقله مجموعة من الأفكار تمثل أصول تفكيره وسلوكه في مراحل حياته المختلفة.

٢ ـ تاريخ النظرية:

لنظرية الأفكار الفطرية تاريخ طويل يرجع إلى عهد اليونان فنجد أفلاطون يذكر في محاورة «فيدون» Phaedo مسألة خلود النفس وكيف أن النفس أزلية أبدية كانت تحيا في عالم المثل قبل أن تهبط إلى عالم المحسوسات (مكان الأوهام والأشباح) وهكذا عاشت النفس منذ الأزل في عالمها حيث عرفت قيم الحق والخير والجمال، كما عرفت معاني الفضيلة والسعادة، ثم هبطت بعد ذلك من هذ العالم العلوي لترتبط بالجسد موطيء الغرائز والشرور فسجنت فيه، وحجبت عنها المعارف السابقة، ومن ثم أصبحت المعرفة عند أفلاطون هي التذكر، تذكر ما قد عرفته النفس من قبل في عالم المثل من حقائق أزلية ثابتة، والتذكر كما يعرفه أفلاطون ليس سوى عملية «لكشف ما قد طواه النسيان بفعل الزمن والإهمال»[١].

---

(١) محاورة فيدون ـ أفلاطون ـ محاورات أفلاطون: ت د. ذكي نجيب محمود ـ الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٥ ص ٦٨.

وفي محاور مينون Menoيذكر أفلاطون أن المعرفة التي حصلتها النفس من قبل في عالم المثل تتبدى عندما يوجه شخص ما إلى آخر سؤال صحيح فإن إجابته ستكون صحيحة ذلك يعني أنه نفسه كان على علم مسبق بالحقائق والمثل وبذلك يؤكد على وجود الحقائق الأبدية الفطرية في الإنسان الذي ما أن يوجد حتى توجد معه الروح التي عرفت كل الحقائق الخالدة؟ وما عليه إلا أن يكتشف ما في نفسه من قبل.

أما أرسطو الذي كان أكثر واقعية وميلاً إلى استخدام الحواس والتجربة الحسية في الوصول للمعرفة فقد أكد بدوره على وجود المبادىء العقلية الأولية Aprioriالتي ليست لها علاقة بتجربة الحس كما تتسم بالضرورة والوضوح الذاتي ولا تحتاج إلى برهان على يقينها[1].

وعند أرسطو ترد الفكرة إلى أخرى أعم منها حتى نصل إلى أفكار أكثر عمومية من غيرها ولا نستطيع ردها إلى ما هو أعم منها وهي مبادىء الذاتية Identityوالتناقض Contradictionوالثالث المرفوع Tiers exclu، وهي قبلية أو مبادىء أولى First principlesلا يمكن أن يقام على صحتها برهان[2]لا بالقياس ولا بالاستقراء لأنها أولية، كما تمثل الأساس الأول الذي تبدأ منه برهنتنا على أية معرفة، لما تتميز به من الضرورة والوضوح الذاتي.

وفي العصور المدرسية اعتمد البحث في نظرية المعرفة على إبراز ما فيها من مبادىء فطرية طبيعية فاستخدموا منهج القياس لا ستخلاص نتائج معينة من مجموعة من البديهيات أو المسلمات مثل المبادىء الرياضية كمبادىء (الكل مساو لمجموع أجزائه - أو الكل أكبر من أي جزء من أجزائه)[3]: وكانت مجموعة المبادىء والمعارف الأولية لا تخص علم واحد

---

(١) Aristotle **Metaphysics**, Book, chlv p, 125 translated by John Warring tom London 1956 Every man's library No 1000. p. 37.

(٢) Ibid.

(٣) عزمي إسلام - جون لوك - دار المعارف بمصر - نوابغ الفكر الغربي - ١٩٦٤ ص ٢٤.

فحسب بل تتعلق بمجموعة العلوم الإنسانية بوجه عام ولقد عرف المسلمون أيضاً هذه النظرية فذكرها الغزالي في الرسالة اللدنية كما أرجعها أفلاطونيو كمبردج إلى طبيعة الروح المتسامية غير المادية ـ كما ذكر سمث أما هنري مور Henry more فقد قال بخلود النفس وبأنها كانت تحيا في عالم أكثر رقياً وصفاءاً[1] قبل أن تحل في الجسد، وهو يقترب في هذا التصور من تصور أفلاطون عن خلود النفس وعالم المثل.

وفي القرن السابع عشر نجد ظهوراً لنظرية الأفكار الفطرية عند ديكارت الذي قسم الأفكار في «التأملات» إلى ثلاثة أنواع فطرية Inées وعرضية Adventices ومصنوعة Factices كما شار بوضوح إلى «الأفكار الفطرية» عندما ذكر أن بعض الأفكار «مفطور في أي جبلت عليه» والبعض الآخر غريباً عني أي مستمد من الخارج بينما أن النوع الثالث مكون من تأليفي واختراعي الخاص»[2]، وتعد نظرية الحقائق الأبدية عند ديكارت صورة من صور الأفكار الفطرية حيث كان يسميها أحياناً بالمعرفة الحدسية Intuitive التي ندركها مباشرة دون شك فيها، ودون اللجوء إلى خبراتنا الحسية، أو مقدماتنا المنطقية (وهذه هي نفس المعرفة التي ذكرها أرسطو باعتبارها إدراك مباشر يقيني).

ويقول ديكارت عن الحقائق الأبدية أن الله لم يخلق موجوداته الخارجية فحسب بل خلق أيضاً ماهياتها وجعلها كأنها حقائق مخلوقة لا يرجع وجودها لأي قوة علية ولما كانت الطبيعة عنده لا تنطوي على علل ثانوية فما الذي يحفظ وجود هذه الحقائق؟ هكذا يتساءل الفيلسوف.

يذهب ديكارت إلى أن الله خلق هذه الحقائق ويحفظ وجودها بالطريقة نفسها التي خلقها بها[3] وتتميز هذه الحقائق بثباتها وأزليتها كإرادة الله «كما

---

(١) نفس المرجع نفس الموضع.

(٢) ديكارت ـ التأملات عثمان أمين ـ التأمل الثالث ـ ص ٢٩.

(٣) Descartes **Lemonde, Oeuvres** A. t, tome 10, Paris 1909 chvll p 37.

تتميز بحرية مطلقة لا نسأل عنها إذ أنه يستحيل على عقولنا المحدودة المتناهية الإحاطة بقدرة الله»[1] .

والحقائق الأبدية لا تستمد وجودها من الله عليا بحسب مبدأ الضرورة ذلك لحرية فعل الخلق الإلهي، كما أنها ليست صادرة منه بالضرورة صدوراً واعياً لأنها ليست جزء منه ولا تصدر عنه كما تصدر الأشعة من الشمس على ما ذكر أفلوطين Platon إذ أن ما يصدر عن الله على هذا النحو يكون صادراً بالضرورة فهو ما يخضع له كل شيء وكل قضاء وقدر.

ويتساءل ديكارت وهو يعرض لنظريته عن مدى اعتماد هذه الحقائق في وجودها على الله فيذكر أن وجودها يتوقف على إرادة الخالق، والقول بأنها لا تحتاج إليه في وجودها إنما يجعل من تصورنا لها على حد تعبير الفيلسوف كتصور اليونان لجوبيتر Jupiterوساتيرن Saturnوهذا يعني إخضاع الإرادة الإلهية للقضاء والقدر وفي هذا إستحالة لأن هذه الحقائق تخضع في وجودها لإرادة الله مثل سائر المخلوقات»[2] .

وتتمثل الحقائق الأبدية في البديهيات الرياضية والمنطقية وكذلك حقائق العالم الطبيعي مثل قوانين الحركة التي خلقها الله وضمن ثباتها إلى الأبد، كما تتمثل فيما منحه الله للعقول منذ الميلاد من قدرة على معرفة الأفكار والمبادىء الفطرية السليمة، ولا يوجد بين التصورين سوى فارق بسيط هو أن ديكارت يرجع المبادىء الفطرية في الإنسان إلى مصدر إلهي خالد بينما يذكر أرسطو استعداد العقل الطبيعي دون أية إشارة إلى مصدر إلهي.

وتمتد جذور نظرية الحقائق الأبدية (الأفكار الفطرية) فنجدها تظهر بصورة أخرى في القرن الثامن عشر عند الفيلسوف الألماني النقدي كانت E

---

(١) Lettre à Mersenne du 27 Mai 1630 **Correspondance** A - M Librairie felix alcan, paris 1936 tome p 135.

(٢) Lettre a Mersenne du 15 Avril 1630 A. M. p. 135.

Kantالذي نادى بنظرية الأفكار القبلية التي تعني أن بـالعقل أو بـطبيعته ذاتهـا توجد شروط ضرورية لإدراك الأشياء، وفهم ذواتنا والعالم الخارجي.

ويرى كانت إنـه لبس بالضـرورة أن تكون جميـع معارفنـا مستخلصة من التجربة Experience، فهناك معرفة مستقلة عن التجربة وغير مرتبطة أصلاً بأي انطباع حسي هي المعرفة الأوليـة الخالصـة المتقدمة على كل تجربة Apriori وهو يفرق بين هذه المعرفة الخالصـة وبين المعرفـة التجريبيـة التي يقول عنهـا إنها لاحقة أو متأخرة A POSTERIORI[١].

والمعـرفـة الأوليـة هي الشـروط أو الأسس لكـل معـرفـة مـوضـوعيـة OBJECTIVEوهذه الشروط أو المبادىء القَبلية تعد أشبه بطبيعة العقل التي لا دخل للحس فيها، فهي سابقة عليه، وأساسية له، وتـوجد في كـل إنسان منـذ ميلاده. كامنة فيه بحكم تكوين عقله الطبيعي في شكـل تصورات لا تـظهر إلا عند مواجهة العالم الخارجي كمقولات الجوهر والعليـة والضرورة والاستحـالة والإمكـان وغير ذلـك بعد أن عـرضنا للتـطور التاريخي لنشـأة نـظريـة الأفكـار الفطرية بداية من أفلاطون وأرسطو مروراً بـالقرنين السـابع عشـر والثامن عشـر عند ديكارت وكانت تنتهي إلى نظريـة الحدس INTUITIONالتي ذكـرها لـوك في فلسفته، وتتعلق بصورة ما بنظريـة الأفكار والمبـادىء الفطريـة التي رفضها كما نقد موقف القائلين بها وخاصـة ديكارت وليبنتـز فيذكـر في «المقال»: «أن الكثيرين يعتقدون في وجود الأفكار الفطرية ولو صح ذلـك لاستطاع البـدائيون والأطفال والمجانين وعامة الناس[٢] أن يعرفوا قانون الذاتية أو التناقض، لكننـا نرى أن هؤلاء جميعاً يفكـرون بطريقـة سليمة بـالرغم من جهلهم تمـاماً بهـذه القـوانين التي تؤدي إلى سلامـة الفكر، لـذلك فـالنـاس تستطيـع أن تكتسب

---

(١) زكريا إبراهيم. كانت أو الفلسفة النقدية ـ مكتبة مصر ـ الطبعة الثانية ص ٦٢.

(٢) An Essay, Book 1, ch II, sec 5, P 65.

المعارف باستخدام قدرتها الطبيعية بدون حاجة إلى هذه المبادىء الأولية والقوانين الأساسية لكي تتم معرفتهم بالعالم[1].

ذلك يعني أن جميع الأفكار التي تتكون في الذهن يجب أن ترجع إلى الخبرة الحسية أو التجربة Experience فعقل الإنسان عند الميلاد يكون - حسب تصور لوك - كأنه صفحة بيضاء خالية من أي أفكار، أو معاني ثم يبدأ بعد ذلك في تحصيل معرفته عن العالم وتكوين أفكار عنه، وهذا يعني أن الحس سابق على الفكر إذ أنه لا توجد في العقل فكرة واحدة لا يكون مصدرها حسي[2] لذلك فلا قيمة لمعارفنا الأولية ومبادئنا الفطرية ما دام أن حصولنا على المعارف الحقيقية يتوقف على التجربة والخبرة الحسية.

---

(١) Ibid.

(٢) An Essay ' Book 1, ch IB, sec 3, p. 60.

٣ ـ حجج لوك في رفض المعرفة الفطرية :

وسوف نعرض لرفض لوك وهجومه على مبدأ الأفكار الفطرية الذي عرض تفاصيله بإثارة وإحكام في الكتاب الأول من «المقال في الفهم الإنساني» حيث يتعرض لنقد الأفكار الفطرية، ثم يعرض لحجج دعاتها ويحاول الرد عليها ودحضها.

يعرض لوك وهو يرفض الأفكار والمبادىء الفطرية النظرية Speculativeلحجتين يشمل الرد عليهما موقفه من المعرفة الفطرية الأولى: هي حجة الإجماع والثانية هي حجة استخدام العقل.

أولاً ـ حجة الإجماع General assent :

يعرض لوك لهذه الحجة، ثم يرد عليها، وينقدها؛ وترمي هذه الحجة إلى أنه ليس هناك شيء مسلم به أكثر من القول بوجود مبادىء معينة ـ نظرية وعملية يتفق عليها جميع الناس، ويتصورونها مستمرة وأبدية حملتها أرواحهم عندما أتت إلى العالم»[١] لذلك يجمع كثيرون من الناس على المبادىء والأفكار ويتفقوا فيما بينهم عليها، لكن لوك يرفض هذه الحجة وينقدها بدعوى أن مسألة إجماع الناس[٢] على مبادىء أو أفكار معينة أو إتفاقهم جميعاً على بعض منها لا يعني أنها فطرية أو أنهم ولدوا وقد حملتها أرواحهم وأتت بها من عالم آخر إلى عالمنا.

---

(١) **An Essay** Book 1, ch 11, sec 2, p 60.

(٢) **An Essay** B, ch II, sec 3, P. 39.

وهذا نص لوك:

(Universal consent proves nothing innate, this argument, draw from universal consent has this misfortune in it that ifit were true in matter of fact that thene were certain truths where in all mankind agreed, it would not prove them innate if there can be any other way shown how men may come to that universal agreement in the things they do condent in which Ipresume may be done) Essay.

ويسوق لنا لوك مثالاً على ذلك ببعض المبادىء التي اكتسبها في حين أنهم ظنوا أنها فطرية غير مكتسبة ويجملها في نوعين نظرية SPECULARIVE، وعملية Practicalويمثل الأفكار النظرية مبدأي فكرة الذاتية وعدم التناقض وهي مبادىء أرسطية كما يناقش لوك في نفس الفصل من المقال معنى كون الشيء هو نفسه وألا يكون في نفس الوقت[1]، فهذه المبادىء أساسية ومعروفة لدى الجميع فلا يصح لأحد أن يناقشها أو يجادل فيها فهي بينة الوضوح بذاتها، ويجب أن تجمع عليها جميع الآراء.

رأينا من قبل أن لوك قد أكد في المقال على أن النزعة الحسية هي المصدر الوحيد للمعرفة بيد أنه مع ذلك يقبل بعض المبادىء النظرية مثل المسلمات أو البديهيات Axiomsلكن هذه المبادىء لا تتصف بالأولية أي بالسبق على التجربة بمعناها الأفلاطوني أو الديكارتي بل هي ملازمة للتجربة وتمثل وظيفة العقل التي يدرك عن طريقها وضوح الأفكار وصدقها بقوة الحدس والبرهان مثل فكرة الذاتية التي تعد أساس العمليات العقلية الأخرى وقد افترض لوك فطريتها لما تتميز به من وضوح وتميز.

رفض الأفكار الفطرية (النظرية والعملية)

هاجم لوك دعاة القول بالأفكار والمبادىء الفطرية ولم يورد إسم اللورد هيربرت شيربوري Lord Herbert cherbury الذي ذكر خمسة مبادىء معروفة للجميع معرفة فطرية من بينها عبادة الله ضمنها كتابه «في الحقيقة» Deveritateمما تأدي بالكثيرين إلى تفسير هجوم لوك على أنه ضد شير بوري.

وتذكر بعض الآراء أنه كان يقصد بنقده أفلاطوني كيمبردج[٤] Cam-bridge platonists لدحض ما ظهر في فلسفات البعض منهم من إيمان بالمعرفة الفطرية مثل هنري مور، بينما يذهب الرأي الآخر إلى أن رجال الجامعات كانوا هم المقصودون بهذا النقد، ورأى فولتير أن لوك كان يهاجم ديكارت في

---

(١) Ibid.

المقام الأول، غير أن الإحتمال الغالب لهذا النقد كان موجهاً إلى أفلاطوني كيمبردج[1] سواء في جانبه النظري العملي.

وبعد أن يذكر لوك هذه الأفكار الأولية البديهية بالنسبة للعقول يشير إلى أنه بالرغم من أولية هذه المبادىء وضرورتها إلا أن هناك عقول كثيرة لا تعرفها كالأطفال Childrenوالمعتوهين Idiotsولما كان هؤلاء يمثلون نسبة معينة من مجموع الآراء، ولما كانت الأفكار الفطرية تتسم بالعمومية فإن عدم معرفة هؤلاء بها يعد سبباً كافياً لرفض هذه الحجة، إذ لو كانت الأفكار الفطرية والمبادىء عامة وشائعة وضرورية. لكانت قد عرفت بالنسبة لهؤلاء أيضاً، وإلا فما الذي يفسر جهل البعض بها.

يقرر لوك أنه لا حجة لمن ينادون بالمبادىء الفطرية ما دام أن هناك عدد من الناس لا يعلمون عنها شيئاً ولا يستخدمونها بعقولهم نظرياً يقول معبراً عن جهل بعض الناس بالقوانين النظرية: «أنني أتصور أن هذه المبادىء لا تلغى

---

(١) أفلاطونيو كيمبردج:
مجموعة من علماء اللاهوت الفلسفي الإنجليز كانوا يتخذون كيمبردج مركزاً لهم كما غلبت النزعة التطهرية على تفكيرهم، اشتغلوا بالتأليف والوعظ في أواخر القرن التاسع عشر، من أشهرهم رالف كدوث، وريتشارد كمبرلان وهنري مور وبنيامين وتشكوت، وجون شميث، وجوزيف جلانفيل.
كانوا يناصرون في حماسة فاعلية العقل، ووجود الروح غير المادية وجوداً حقيقياً فاشتد هجومهم على فلسفة هوبز الحسية، ومما يذكر عنهم معارضتهم له في أن تكون السلطة الإلهية أو السياسية هي مصدر الإلزام الخلقي، فقد كان الصواب والخطأ الأخلاقيان وكذلك الخير والشر أموراً أبدية ثابتة، وليست نتيجة لأية أوامر أو مراسيم.
نص لوك:

An Essay' Book, ch II, sec 5 P. 40.

«For First, it is evident that all childrem and idiots have not the least comprehension or thongt of them. and the want of that is enough to destroy that universal assent which must needs be the necessary concomitant of all innate truths».

الموافقة الإجماعية من حيث أنها ليست معروفة لعدد كبير من الناس»[1] وإن صح وقيل أن تلك المبادىء مطبوعة ومفطورة في العقل منذ الأزل، فما الذي يجعل هؤلاء الناس (الأطفال - المعتوهون) غير شاعرين بها[2]، وهل من المعقول أن يتضمن العقل ثمة مبادىء لا يشعر المرء بها أو يدركها إدراكاً صحيحاً؟

إن القول بالفكرة المفطورة أو المطبوعة في العقل ثم القول بعدم إدراك العقل لها إنما تعني تناقضاً صحيحاً وخللاً في نظرية دعاة الأفكار الفطرية.

نص لوك.

(١) **An Essay** Book 1, ch 1, sec 4. p. 40.

«Butyet I take liberty to say that these propositions are so far from having an universal assent that there are a great part of mankind to whom they arenot so much as known».

(٢) Ibid.

ثانياً ـ حجة استخدام العقل:

ترمي هذه الحجة إلى أن الناس تعرف مجموعة من المبادىء والأسس الفطرية وتوافق عليها إذا ما بدأوا في استخدام عقولهم» ويفهم من هذه الحجة وجود الأفكار بالقوة في العقول وأنها لا تظهر بالفعل إلا عندما يبدأون في استخدام عقولهم فتخرج هذه الأفكار من حالة الكمون (القوة) إلى حالة الفعل. ويرى لوك أن هذه الحجة تعني أمرين لا ثالث لهما:

الأمر الأول:

هو أن ظهور الأفكار والمبادىء الفطرية موقوف على استخدام الإنسان لعقله فيدرك هذه المبادىء الأولى.

والأمر الثاني:

يعني أن معرفة هذه المبادىء الأولى لن يتم ما لم يستخدم الإنسان عقله[1].

لكن لوك يرفض هذين الاحتمالين مبرراً رفضه بفرض أن الإنسان لو استطاع أن يكتشف بعض القوانين الضرورية الأولية باستخدام عقله، ثم قام بعد ذلك باستنتاج بعض النظريات الملحقة بهذه القوانين، فإنه لن يكون ثمة فرق بين القوانين والمبادىء الفطرية. وبين إستنتاجاتها التالية من حيث أن الأولى والثانية قد نتجت عن طريق اكتشاف العقل، وحسن استخدامه لوظيفته وهذا من دواعي الخطأ، وقد عبر لوك عن هذا الرأي في نص يقول فيه» أنه لو فرض واكتشف الإنسان بعقله بعض المبادىء الرياضية الأولية ـ التي يقولون بفطريتها ـ مثل أن الشيء هو وأنه لا يساوي إلا نفسه ثم استنتج بعد ذلك بعض نظريات الرياضة، فإن ذلك يعني اكتشاف الإنسان لما كان مفطوراً في عقله من مبادىء ونظريات ما دامت أن وظيفة العقل هي اكتشاف ما كمن من

(١) An Essay Book. ch II.. p. 40.

نـظريات ومبـادىء مفطورة (مـوجودة بـالقوة)، ذلـك يعني أنه لا اختـلاف بين مبادىء الرياضة الأوليـة، وبين النظريـات المستنتجة منهـا من حيث أن كليهما فطري وهذا خطأ جسيم لأن الاختلاف واضح بينهما»[1].

يدلل لوك على وجهة نظره من جهة أخرى فيرى أنـه لو كـانت المبادىء مطبوعة في الإنسان قبـل استخدام عقله فهـل يعني ذلك أن تـظل تلك الأفكار التي عرفت سراً من قبل تظل في ذهنه دائماً سواء كانت فطرية أم مكتسبة؟

يرى لوك أن ذلك لا يحدث لأن الأفكار التي تظهـر وتصبح محـل تفكير هي التي يفكـر فيها الإنسـان فحسب بينما تـظل بقية الأفكـار في دائـرة الـظل حيث يمكن استرجاعها بالتذكر فالإنسان ينسى بعض الأفكار وهو غير عالم بها أصـلاً فجأة يتـذكرهـا، وهنا يصبـح موقف لـوك قلقاً في مسـألة علم الإنسـان بالحقائق ولا علمه في نفس الوقت.

كـان رفض لوك لـلأفكار والمبـادىء الفطريـة، وتـأكيـده على المعـرفـة الحسيـة وأوليتها من بين العـوامل التي دفعتـه لإبراز وظيفـة العقـل وسط هـذه الاتجاهات المتعددة باعتبار أن هذه الوظيفة هي سند المعرفة التجريبية، وقوام نظرية المعرفة عنده ويعبر لوك عن ذلك بقوله: «إن من يـلاحظ العمليات التي يقـوم بهـا العقـل يجـد أن استعــداد الإنسـان الفعلي لقبــول بعض الحقـائق

---

(١) An Essay Book, ch, sec 8 p. 42 - 43.

نص لوك:

«that by the use of reason we are capable to a certain knowledge, of and assent to them and by this means there will be no difference between the maxims of the mothematicians and theorems they deduce from them, all must by equally allowed innate they being all discoveries made by the use of reason and truths that a rational creature may certainty cone to know ifhe apply his thoughts rightly that wag».

والموافقة عليها. يرجع إلى الوظيفة الأ لي للعقل ومعنى ذلك أنها لا ترجع لأية انطباعات أولية مفطورة أو لأية اكتشافات للعقل عند استخدامه»[1].

ومن تحليل هذا النص نجد أن لوك يذكر أمرين هامين في مسألة المعرفة.

أولهما: أن معرفة الإنسان لا تتم عن طريق الأفكار الفطرية أو المبادىء المفطورة (المطبوعة) داخل العقل.

ثانيهما: أن معرفة الإنسان لا تتم عن طريق استخدام العقل واكتشاف ما بداخله من أفكار ضرورية أولية توجد فيه بالقوة ثم تخرج حال استخدامه إلى حيز الفعل.

بهذه الكيفية ينفي لوك الأفكار المفطورة، كما ينفي مسألة استخدام العقل لاكتشاف الحقائق ويؤكد على وظيفة العقل تلك العملية الإيجابية - الباطنية التي ترتكز عليها سائر الانطباعات الحسية والمدركات التي يحصلها الإنسان عن طريق الخبرة الحسية ويقصد بها لوك «الحدس أو التأمل الباطني» أما هجومه على الأفكار الفطرية العملية فهي الخاصة بالأخلاق والدين ويسوق لنا مثالاً عليها بأحد المبادىء التي ذكرها هيربرت شيربوري من ضمن مبادىء عملية خمسة ضمنها كتابه «في الحقيقة» يذكر فيها أنه تجب عبادة الله «God isto be worshipped»، والمشكلة التي يثيرها لوك تتعلق بمسألة العبادة من حيث أنها ليست فكرة مفطورة في النفوس.

* - تصور وجود الله (الفطري) عند ديكارت:

لقد بدأ ديكارت ميتافيزيقاه بتأمل الذات، ومحاولة استبطانها. وتمثلت هذه المحاولة في البحث عن فكرة تفوق حقيقتها الموضوعية كل ما فيه،

---

(1) An Essay Book 1, ch III, sec 1, p. 92.

بحيث لا يكون هو علة هذه الفكرة، ولما وجد ديكارت بين أفكاره فكرة الله فقد أيقن أنه ليس وحيداً في هذا العالم.

ويتساءل ديكارت عن مميزات أو خصائص هذه الفكرة التي تنطوي عليها ذاته أي فكرة الموجود الكامل اللامتناه ـ وعن مصدرها، فيرى أنها فكرة تمتاز بالوضوح، والتميز كما تحوي كل ما يتصور من كمال. أما مصدر هذه الفكرة فإن ديكارت يتساءل بصددها كثيراً يقول عن مصدرها: هل استنبطتها من نفسي؟ ويجيب: ولكني موجود يشك ويتردد ولما كان الشك دليل النقص والعلم خير منه.. فكيف إذن يستطيع إستحداث فكرة الكامل وهو ناقص؟

هل يقول أنها جاءته من الأشياء الخارجية؟ لكنها لا تخطر له كما تخطر له أفكار المحسوسات. والعالم الخارجي ناقص مؤلف من أشياء محدودة. وعلى فرض تمكنه من جمع فكرة إلى أخرى فإنه لن يستطيع من مجموع هذه الأفكار الناقصة أن يؤلف فكرة عن هذا الكائن اللامتناهي:

يذهب ديكارت إلى أن هذه الفكرة تتميز بالبساطة، ولا تنطوي على أن تركيب أو تأليف لأنها تمثل موجوداً واحداً حاصلاً على جميع الكمالات، بحيث أنه لا يستطيع أن ينقص أو يريد فيها شيئاً.

ولما كانت هذه الفكرة ليست حادثة، أو مصطنعة فهل لذلك فطرية بسيطة أولية.

وتتمثل الأفكار البسيطة الأولية في الفكر الرياضي. فكل ما يتصور بوضوح أنه حاصل على ماهية ما، فهو حاصل لها، أو بمعنى آخر كل محمول متضمن في فكرة شيء ما فهو صادق بدون شك على هذا الشيء ذاته، ومثال ذلك على ما يقول «ديكارت». «أننا لو تصورنا شكلاً هندسياً كالمثلث فإنني ـ في هذه الحالة ـ أكون متصوراً لماهية ثابتة ليست لها علاقة بذهني، ويتبع ذلك ألا يكون لي الحق في أن أزيد عليها، أو أنقص منها، ولما كنت أتصور مثلثاً فإن ثمة فكرة تتبادر إلى ذهني عنه وهي أن زواياه تساوي قائمتين، وهذا

ما يحدث بالنسبة لأية ماهية أخرى وبالعودة إلى فكرة الله ـ الكائن الكامل اللامتناهي ـ وجدت أن فكرته تتضمن وجوده بالضرورة من حيث أن الوجود كمال. وإذا كان الكامل غير موجود لكان ناقصاً مفتقراً إلى موجد» وهكذا يتضح لنا مما سبق أن وجود الله لازم من فكرته ذاتها أي من مجرد تعريفه ـ وليس في هذا القول أي وجه خطأ فقد اعتادت الناس أن تميز حين النظر للأشياء بين الوجود والماهية، أما في حالة وجود الله فكيف يتسنى لهم فصل الوجود عن الماهية؟ مع العلم بأن الكامل على الإطلاق هو الذي تحصل ماهيته على جميع الكمالات.

وهكذا تصبح فكرة الكائن اللامتناهي هي الفكرة التي تتضمن الوجود محمولاً ذاتياً بما يستحيل مع ذلك فصله عن الماهية ـ كما لا يمكن فصل فكرة الوادي عن فكرة الجبل على حد تعبير ديكارت. من خلال عرض الفكرة السابقة يمكن تلمس دليل ديكارت الأول على وجود الله وهو ـ كما سبق أن فسرناه ـ مأخوذ من دليل القديس «أنسلم» بعد أن أضاف إليه «ديكارت» فكرة أصالة وفطرية فكرة الله. ومن هذا الدليل الأول نرى أن ديكارت يحاول دفع النفس إلى تأمل ذاتها وسبر أغوار أفكارها حتى يتسنى لها الوصول إلى فكرة الله. كما أنه يحاول تفسيرها من خلال حقيقتها الموضوعية ـ أي من جهة موضوعها الذي تمثله فحسب ـ كما يرى أن هذه الفكرة معروفة للنفس بصورة طبيعية ويكفي لصدورها أن يحاول الإنسان التفكير في ذاته، وما تنطوي عليه من نقص وشك وتناهي.

وعلى هذا النحو يقودنا التفكير المباشر في النفس وما تنطوي عليه من رفض وشك إلى التوصل إلى فكرة وجود الله. فتصبح فكرة هذا الكائن ماثلة بصورة طبيعية مع فكرة النفس عن ذاتها ووجودها ومرتبطة بها مباشرة.

ويتبع هذا الدليل الأول على وجود الله دليلين آخرين محورهما ملاحظة النفس أيضاً، والتفكير فيها: ففي الدليل الثاني يحاول الفيلسوف أن يسبر غور

نفسه لكي يصل إلى علة وجوده وحفظه في كل لحظة من لحظات الزمن.

ويرى ديكارت أنه لما كان هو ذاته ليس علة وجوده فينبغي عليه البحث في هذه العلة، إذ لا يمكن أن يثبت وجوده. أو يبقى ويستمر دون علة، وحيث أنه موجود في الزمن (وهذا الوجود الزمني مكون من لحظات متتابعة منفصلة الواحدة منها عن الأخرى موجودة في اللحظة الحاضرة لا الحالية كان من الممكن ألا يكون لأنه يستتبع ضرورة وجوده في لحظة تالية، ومن جهة أخرى فإن ولديه ليسا هما سبب وجوده ـ أنهما ليس أكثر من مناسبتين لميلاده فحسب. ولا يقدران على حفظه لحظة واحدة بعد هذا الميلاد. ثم لا داعي للبحث عن علة وجودهما حتى لا ينطلق إلى سلسلة من المعلولات، والعلل يقول الفيلسوف: «فيجب أن نتوقف عن البحث في سبب وجودي (في لحظة وجودي) الآن وحسب ويتساءل في التآمل الثالث: «وإني أتساءل إذن ممن استفذت وجودي؟ قد أكون استفذته من نفسي. أو من أبوي. أو من علل أخرى أقل من الله كمالاً فليس يمكن أن نتصور شيئاً أكمل منه، ولا كفؤاً له»[1].

أما الدليل الثاني على وجود الله ميتافيزيقيا فيقوم على وجود النفس أو تأمل وجودها وهو في ذلك يشبه الدليل الأول ـ فيقين الفيلسوف وجوده، وبما ينطوي عليه هذا الوجود أو ـ هذه الذات ـ من كمال ونقص، من حقيقة وخطأ. من وجود وعدم، إنما يعد إثباتاً لوجود الله الكامل الحق المتسامي اللامتناهي. وعلى هذا النحو الذي يكتشف فيه الفيلسوف احتواء ذاته أو وجوده على هذه الفكرة يصل إلى الدليل الثاني على وجود الله التام الكامل اليقيني. أما الدليل الثالث على الوجود الإلهي فقد توصل ديكارت عن طريق استخدام التفكير الرياضي، والتوصل منه إلى يقين بوجود الله مماثل ليقين الرياضة. على اعتبار أن جميع الأفكار بما فيها فكرة الكائن الكامل. هي أفكار تتعلق بطبائع ثابتة حقيقية. أي بطبائع تتميز بالضرورة الداخلية، فنحن

---

(١) ديكارت: عثمان أمين، التأمل الثالث. ص ١٥٧.

نجد أن الأفكار الرياضية تتمايز واحدة منها عن الأخرى بطبيعتها الخاصة، وكذلك الحال بالنسبة لفكرة الكائن الكامل فهي فكرته لطبيعة ثابتة حقيقية، لها ضرورة معينة خاصة تميزها عن الطبائع الرياضية فما هي إذن الفكرة التي تميز طبيعة، وضرورة هذا الكائن الكامل الذي لدينا فكرة عنه عن جميع الطبائع الرياضية التي لدينا عن كل واحدة منها فكرة واضحة متميزة.

إن ديكارت يرى أن الطبيعة التي تتمايز بها فكرة الكائن الكامل أسمى وأعظم من أي طبيعة تتعلق بالأفكار الرياضية، فهي فكرة تتميز تماماً عن غيرها من الأفكار الرياضية لأن ماهيتها لا تنفصل عن وجودها، إنها فكرة تقتضي الماهية والوجود وهذا ما لا يحدث بالنسبة لأية أفكار أخرى.

وجدير بالذكر أن لهذه الفكرة ضرورة تفرض وجود موضوعها علينا تماماً كما يكون من الضروري أن نقول عن تصور المثلث أنه شكل هندسي ذو ثلاث زوايا متساوية في مجموعها لقائمتين فنحن عندما نتصور وجود المثلث يتقرر علينا بالضرورة الاعتراف بأن زواياه مساوية لقائمتين، وكذلك الحال بالنسبة لفكرة الكائن الكامل، فالتفكير فيه يعني التفكير في ماهيته ووجوده في نفس الوقت، فالكائن اللامتناهي فكرة مفطورة عليها النفس بطبيعتها وضروريتها.

ويتعارض موقف لوك في إنكار فطرية فكرة الله مع ما ذكره ديكارت في تأملاته عن أن هذه الفكرة مفطورة في نفوسنا يقول ديكارت: «ما كنت أعرف أني كائن ناقص ومتناه لم تكن بداخلي فكرة «الكامل» أو «اللامتناهي» وبديهي أنني لم أستطع بنفسي أن أخلق تلك الفكرة..»[1].

ويظهر من هذا النص اعتراف ديكارت بفطرية فكرة وجود الله التي رفضها لوك، والتي يرى أنها فكرة تبدو بعيدة التصور حتى مع من يدركونها.

وبعد معرفتنا بوجود أشخاص مؤمنين وآخرين على علم بالله غير مدركين

---

(١) Descartes, **Medit A**, t. Paris 1904, tomeg 9 Medit 3, PP. 40 - 41.

له أيصح لنا بعد ذلك أن نقول أن فكرته مفطورة في النفوس؟ ثم يعود لوك ويذكر إنه لما كانت الأفكار الفطرية النظرية غير مفطورة في النفس، أيضاً أسوة ببقية الأفكار النظرية والعملية، وحيث أن فكرتي الذاتية Identity والإستحالة Impossibility فكرتان غير فطريتين لأنهما غير معروفتين للأطفال والمعتوهين فيلزم عن ذلك أن فكرة وجود الله تصبح غير فطرية كذلك.

* تعليق:

انتهينا من قبل إلى أن لوك قد رفض رفضاً قاطعاً وجود أفكار أو مبادىء فطرية نظرية، أو عملية ـ فعلى المستوى النظري رفض أن تكون المبادىء التي ذكرها أرسطو مثل مبدأ الذاتية، وعدم التناقض فطرية وأولية في العقول وحجته في ذلك أن الإجماع غير متفق على معرفتها بالنظر إلى حالات الطفولة، وضعاف العقول، فكيف إذن تكون الأفكار فطرية في العقول ثم نجدها تظهر عند البعض دون البعض الآخر من الناس. وحتى على فرض ظهورها حال استخدام الإنسان لملكة العقل، فإن هذا القول يعني أيضاً عدم ظهورها عند الطفل لعجزه عن اكتشافها في ذاته، وأنه سوف ينتظر حتى يبلغ سناً يستطيع فيها استخدام عقله والاسترشاد بمبادئه يتساءل لوك كيف تعرف هذه المبادىء وهي فطرية بعد استخدام الإنسان لعقله؟ وكيف تكون هذه المبادىء مفطورة ثم لا يشعر بها أو لا يدركها في ذاته كيف يحدث ذلك؟.

ثم يعود ويرفض على المستوى العملي فكرة عبادة الله وفطريتها بدعوى وجود الملحدين، وبهذه الكيفية يضع لوك في استهلال مؤلفه «المقال» تساؤلات كثيرة تتميز بالإثارة والبراعة، ثم يوجه الهجوم والنقد إلى نظريتي الأفكار الفطرية والعملية معاً[1] منكراً وجود أفكار أو معارف فطرية يتضمنها

(١) عرض لوك لهجومه ونقده المثير في مؤلفه «مقالة في الفهم الإنساني» في الكتاب الأول في المواضع التالية:
=

العقل الإنساني، ومؤيداً للمعرفة المكتسبة عن طريق التجربة والخبرة الحسية.

د ـ الخبرة الحسية والتجربة مصدر المعرفة الأولى:

يذهب لوك إلى أن بوسع الإنسان التوصل إلى معرفة الأشياء الموجودة في العالم المادي عن طريق الإستنتاج، غير أن هذا لا يبدأ من فراغ، بل لا بد من وجود قاعدة أساسية تتكون عليها هذه الإستنتاجات المتصلة، ويرجع لوك هذه القاعدة إلى التجربة أو الخبرة الحسية [1].

والإنسان في تصوره يولد بعقل أشبه بالصفحة البيضاء الخالية من أي معاني أولية أو أي أفكار فطرية ثم يبدأ بعد ذلك في جمع المعرفة عن طريق الإحساس بالعالم المادي فتبدأ الانطباعات الحسية تنقش في العقل المعارف والمعلومات عن العالم الخارجي، وبذلك تتكون الأفكار وتصبح الخبرة الحسية هي المعين الأول الذي يستقي منه العقل أفكاره، ومن ثم يستحيل أن نسأل شخصاً لا يحس متى بدأ يفكر، يقول لوك: «لو سألنا شخصاً عن آخر متى بدأ يفكر فإن إجابته سوف تكون عندما بدأ يحس» [2].

هـ ـ الأفكار عند لوك بين تجربة الحس، وحدس الأفكار الأولى:

رأينا مما سبق كيف أنكر لوك وجود المعارف الفطرية، وكيف رد المعرفة

= V II, ch I - II - III -. 38 - 118 - NO Innate speculative principles. - No Innate practical Principles - and other. proofs against innate principles.

John Locke - An Essay concerning human understanding collated and annotated by, alexander campell fraser iniwo volumes - New York 1959.

(١) Ibid p. 140.

(٢) **An Essay**, Book II, ch. I. sec 23 p. 141.

نص لوك:

«If it shall be demand then, when a man begins to has any sensation, For since =

إلى الحس والتجربة التي تسهم في تكوين الأفكار داخل العقل. وعلى الرغم من إيمانه بالمعرفة الصادرة عن التجربة الحسية بيد أنه قد ذكر ـ في ذات الوقت ـ وجود معرفة حدسية برهانية[1] أطلق عليها إسم المبادىء الأولى Maxims، تبعد عن مجال العلم والتجربة، وتتميز بالوضوح الذاتي ولا تحتاج للتدليل على صحتها كفكرة الذاتية، التي تعد مبدأ أساسياً ترتكز عليه جميع العمليات المعرفية فكيف يحدث ذلك؟ إنكاره للمعرفة الفطرية، ثم ذكره لبعض مبادىء أولية في العقل، شديدة البداهة حتى لتبدو كأنها فطرية، وتأكيده على أنها من أول العمليات التي يقوم بها العقل[2]. بعد أن يزود بالإحساسات والأفكار.

في ضوء هذا المفهوم لقدرات العقل على تكييف إحساساته، وجعلها ملائمة لتكوين أفكار صحيحة، يثبت لوك وجود قدرات مثل مبدأ الذاتية الواضح بذاته، والذي يدخل ضمن وظائف العقل وعملياته الأولية، فالذاتية هنا ليست مبدأ راسخاً، وموجوداً في العقل من قبل بقدر ما هو فعل وظيفي يستطلع العقل به الأمور ويكتشف معطيات العالم الحسي ونحن من جهة أخرى نرى أن لوك يرفض الأفكار برمتها. فكيف يقع في هذا التناقض فيعود لإثباتها بعد ذلك فيما أسماه بالمعرفة الحدسية أو البرهانية.

إن لوك يبدأ بمشكلة مذهبه الأساسية ـ الأفكار الفطرية ـ فيحاول إنكارها ونقدها حتى يتسنى له إقامة مذهبه الحسي التجريبي بنفي كل ما هو فطري والتأكيد على ما هو مكتسب، وإقامة حججه ومبرراته في قوة، غير أنه يعود بعد ذلك ويذكر المعرفة الأولى الحدسية.

= there appear not to be any have any ideas, I think the true answer is when to first ideas in the mind before the senses have conveyed any in».

(1) Ibid. B IV ch. IX Sec 2 P.

(2) An Essay B IV. ch. 1 sec 4 p' 167.

ومسألة رفض الأفكار وتأييدها عرف جرى عليه تاريخ الفكر الفلسفي فإذا كان لوك قد رفض الأفكار الفطرية كي يفسح مجالاً أمام الأفكار المستمدة من الحواس والتجربة فقد عاد بعد ذلك ووضع المعرفة الحدسية كلبنة أساسية في بنائه المعرفي، وهي قريبة من المعرفة الفطرية فتظهر المعرفة العقلية وهي تستند على دعامتين خارجية وداخلية، تجريبية في الواقع وعقلية في الذهن، حسية وحدسية.

إن مذهب لوك المعرفي يعتمد على معطيات الحس، غير أنه يرتكز على المعرفة الأولية السابقة التي كانت مطبوعة في العقل، والتي تلقتها الروح وأتت بها إلى هذا العالم. هكذا يشير في «مقاله». إن نظريته في المعرفة قد قامت على مصدرين هامين هما المصدر التجريبي الخارجي، والمصدر الحدسي الباطني ومهما يذكر لوك من مبررات استخدامه للمعرفة الأولية الحدسية سواء اعتبرها وظيفة عقلية أو غير ذلك فإن ذلك لا يبرر لجوءه إليها في تأسيس بنائه المعرفي، فرفض لوك للمبادىء والأفكار الفطرية لا يعني بأية حال أنه فرغ عقله منها، أو أنه جرد بناء المعرفة من قيمة الحدس الكبرى، إن ديكارت قد رفض الأحكام الصادرة عن الحواس والأوهام والخيال حتى بلغ به الأمر إلى حد تصور إنكار جسده في لحظة من لحظات التأمل، لكي يتسنى له إثبات ذاته التي تتميز بالفكر في عرضه للكوجتيو «أنا أفكر إذن فأنا موجود»، ولكي يثبت جن الفكر سابق على المادة بكل أنواعها حتى يتمكن في النهاية من قبول أحكام العقل منزهة خالصة واضحة بذاتها بينما، أن لوك قد رفض الأخذ بأية معرفة أو فكرة لا تصدر عن الحس والتجربة، في حين أنه ذكر أن الأفكار والانطباعات الحسية التي يتلقاها الإحساس من العالم الخارجي لا تنتظم ولا يكون لها معنى بدون فاعلية التأمل الباطني والبرهاني، كما أن العملية المعرفية في تصوره لا تتم برمتها إلا بتضافر عاملي الإحساس والفكر الداخلي معاً بل والأكثر من ذلك أن تتميز معرفة الحس بالسلبية، بينما تكمن

الإيجابية فيما يقوم به العقل من عمليات فعالة نتيجة لتفاعله مع معطيات الحس عن طريق التأمل الذاتي.

وبينما أشار لوك للحس والفكر معاً، نجد أن هوبز وكونديياك قد غالا في إتباع المنهج الحسي أخضعا كل معرفة وفكرة إلى مجال الحس فلا وجود لأي تصور في العقل عند هوبز لا يصدر كلياً أو جزئياً من الأعضاء الحسية[1] بينما أن هيوم D. Humeقد سار في هذا الاتجاه حتى بلغ مداه فأصبحت التجربة الحسية وحدها هي مصدر الأفكار في العقل بل نفي وجود أية معرفة سابقة على الإحساس الذي صار هو والتجربة الحسية مصدر المعرفة للإنسان[2].

---

(١) علي عبد المعطي ـ تيارات فلسفية حديثة ـ دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤. ص ٥.

(٢) زكي نجيب محمود، ديفيد هيوم، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٧١.

الفَصْلُ الثَّالِث

المعرفَة التجريبيّة

تمهيد:

١ ـ معنى التجربة.

٢ ـ معنى الإحساس

٣ ـ وظائف الإحساس.

٤ ـ الأفكار واللغة.

٥ ـ تصنيف الأفكار.

٦ ـ ماهية الصفات الأولية والثانوية.

٧ ـ الإدراك الحسي.

٨ ـ موقف لوك من الأفكار المركبة.

تمهيد

يتساءل لوك في «المقال» عن مصدر المعرفة، ومن أين تأتي الأفكار التي نجدها عند الطفل مثل فكرة اللون الأبيض أو الأسود، وفكرة الحلو أو المر[1]. هل من المعقول أن تجيء إلينا هذه الأفكار عن طريق غير طريق الفطرة التي جبلنا عليها.

إن لوك يرفض مبدأ الفطرة ويؤكد على مبدأ الإستنتاج والإستدلال فيذكر أننا توصلنا إلى هذه الأفكار عن طريق أفكار أخرى سبقتها، وتعرفنا عليها، وعن طريق إستخدام الإستدلال، والإستنتاج، والمقارنات استطعنا أن نكون فكرة عن الأشياء ونستدل على حقائق مجهولة عن طريق مبادىء أخرى سبق أن عرفناها[2] من قبل، ثم نعود ونستخدمها من أخرى سابقة عليها وهكذا دواليك حتى تتكون لدينا مجموعة الأفكار التي تتكون في الذهن عن العالم.

١ ـ معنى التجربة:

تعني التجربة عند لوك إرتباط مجموعة من الأفكار في الذهن بشيء واحد أو حامل واحد، بمعنى أنه إذا قيلت هذه الصفات فإنها تدل على هذا الشيء، إن ثمرة التفاح على سبيل المثال فاكهة ذات لون أحمر، ذات شكل مستدير، وطعم حلو فإذا ذكر لفظ تفاحة أمامي فإن الذهن سريعاً ما يلتقطه ويرتبط فيه بأفكار الثمرة والإستدارة والشكل الأحمر والمذاق الحلو، وينطبق مثل ذلك على البرتقال أو الزهر أو غيرهما من الأشياء التي نتناولها في العالم الخارجي.

---

(١) An esasy. Book i sec 3, P. 67.

(٢) Ibid. sec 9 p. 45.

ويحاول لوك أن يبحث عن أصل فكرة التفاحة وصفاتها هل هي قديمة مفطورة في نفسه، أم مكتسبة بالإستنتاج. يقول لوك هل معرفته عن صفات التفاحة وأفكاره عنها قد وجدت في ذهنه منذ زمن، بمعنى أنها حاصلة فيه كمعرفة أولية سابقة Apriori.

إن لوك يسهب في تفسير ذلك فيقول: «هل عرفت منذ زمن معاني الإستدارة والحلاوة والإحمرار وغير ذلك من صفات، وعندما أدركت التفاحة تذكرت لتوى معرفتي السابقة التي طبعت في نفسي، وحملتها روحي معي إلى العالم، فاستطعت معرفة ثمرة التفاح بما أعرفه من أفكار سابقة عنها «فكرة التذكر الأفلاطوني في المثالية» أم أني عرفت التفاحة لأنها مستديرة مثل شكل الكرة التي سبق لي رؤيتها، وعرفت أنها مستديرة مثل شكل التفاحة، وأن البرتقالة تحمل نفس صفات الإستدارة وكنتيجة لهذه الإستنتاجات عرفتها.

إن لوك يرفض الفكرة المسبقة الأولى باعتبارها أولية ويقبل الفكرة الثانية البعدية A posterlori التي تأتي كمحصلة للخبرات الحسية[1] عن طريق الإستدلال والإستنتاج. ورفض لوك للفكرة الأولية الأولى تؤكد إيمانه بمعطيات الخبرة الحسية التي تعني إستقبال الإنطباعات الحسية، ونقلها على صفحة العقل البيضاء الخالية Tabula rasa حيث تنتظم وتصبح إدراكاً حسياً يعطي فكرة واضحة، أو صورة ذهنية عن الشيء المحسوس. وهنا تبرز قيمة العقل الإيجابية، إذ أن عمل العقل لا يتمثل في وصف لوك له «بالصفحة البيضاء الخالية» التي تتلقى الإنطباعات فحسب، وهنا يبدو ثمة معنى للسلبية من خلال المعنى الظاهر للعبارة، بل يتمثل في المقام الأول فيما يقوم به من عمليات عقلية إيجابية (كالتذكر والتخيل والتركيز) في تحصيل الصور الذهنية وتعديلها، وتكوين الأفكار المؤكدة، والدقيقة عن العالم الحسي.

(1) AN esasy Book II. ch. I, Sec 3. P. 123.

نص لوك:

This great source of most of the ideas we have depending wholly upon our senses and derived by them to the understanding (I call sensation).

٢ ـ معنى الإحساس :

بعد أن قدمنا لمفهوم التجربة عند لوك نشير في إيجاز إلى معنى الاحساس بصفة عامة، مبينين الصلة بين الحس، والعالم المادي.

فالإحساس ينشأ من تأثير العالم الخارجي على حواس الإنسان. فمظاهر البيئة المختلفة (كالذبذبات الكهر ومغناطيسية ـ وجزئيات الجواهر الكيميائية) تنبه الحاسة المستقبلة، وينتقل المنبه بعد ذلك في صورة نبضات منفصلة خلال القنوات العصبية إلى الجزء المركزي من الحاسة، وهو اللحاء المخي حيث ينشأ الإحساس. لذلك كان دور الإحساس ثانوي بالنسبة للواقع المادي المحسوس.

وتنقسم الإحساسات إلى مجموعة أنواع منها البصرى واللمسي، والسمعي والذوقي، والشمي، ولكل مجموعة من الإحساسات حالة خاصة بها، وصفات لا تقارن بصفات إحساس آخر فالألوان لا تشبه الأصوات، ولا الذوق، أو الروائح.

وتعد الإحساسات البصرية من أكثر الإحساسات تطوراً تليها في درجة التطور اللمسية، فالسمعية، فالذوقية، فالشمية.

٣ ـ وظائف الإحساس :

وتتوثق الصلة بين الإحساسات وخصائص العالم الخارجي حيث تتطابق الثانية مع الأولى فتبدأ عملية التوصل إلى معرفة العالم الموضوعي عن طريق الإحساس ولهذه العملية وظيفتان :

الأولى : أهمية دور الإحساسات في الإشارة. فعلى سبيل المثال يشير لون المعدن عندما يتعرض لوهج النار إلى حراراته، وعلى الرغم من أن اللون في حد ذاته ليس هو مصدر المعرفة بدون حرارة الجسم إلا إننا نعرف منذ البداية أن ثمة علاقة مشتركة بين اللون، ودرجة الحرارة.

الثانية: أهمية دور الإحساسات باعتبارها جزءاً من الصورة التي يعطيها الإدراك الحسي فهو يفسر الصلات، والعلاقات الموجودة في العالم الخارجي الموضوعي.

والإحساس باعتباره مصدراً للتفكير الحسي هو القناة التي يرتبط الإنسان من خلالها بالعالم الخارجي.

٤ ـ الأفكار واللغة:

يرى لوك أن رد المعرفة إلى الاحساس تؤيده دراسة اللغة فهي التي زود الله الإنسان بها، وهي شيء مصنوع على الرغم من توارث الناس لها، لكنها رغم ذلك اختيارية من حيث عدم وجود صلة ضرورية بين أي لفظ، وبين ما يشير إليه من أفكار.

وليست اللغة سوى علاقات حسية معينة ترمز أو تشير إلى الأفكار الموجودة في الذهن، وبالتالي تصبح الأفكار التي تشير إليها الألفاظ هي الدلالة الحقيقة المباشرة لها.

وقد ساد اعتقاد قديم عن معنى «الكلمة» وأن دورها يتحدد في الإشارة إلى شيء ما فإذا قلنا كوب، فهذا يعني أنها تشير إلى شيء خارجي موجود في الواقع هو الكوب، وقد غير لوك من هذا الاعتقاد عندما أكد على أن الكلمة لا تشير إلى الشيء الواقعي بقدر إشارتها إلى الفكرة الموجودة في الذهن عن هذا الشيء ومن ثم فإن الكلمات في دلالتها المباشرة الأولية لا تشير إلا إلى الأفكار الموجودة في ذهن قائلها، لذلك يكون وضوح الكلمة مقترناً بوضوح فكرتها التي ترمز إليها.

٥ ـ تصنيف الأفكار:

رأينا كيف قسم لوك الأفكار إلى حسية وتأملية. أما الفكرة عنده Idea وكما يعرفها في مؤلفه «مقالة عن الفهم الإنساني» فهي موضوع العقل أثناء

التفكير، أو هي كل ما يمكن أن يوجد في ذهن الإنسان أثناء عملية التفكير» أنها مادته[١]، ولذلك فهي الركيزة الأولى في عمليات العقل حيث بدونها لا يستطيع القيام بوظائفه.

وتصبح الأفكار بسيطة Simple من حيث أنها أساس لقيام العقل بوظيفته كما تصبح ناتجة عنه من حيث كونها أفكاراً مركبة Complex [٢] وتتألف عمليتي الإحساس، والتفكير من الأفكار البسيطة التي عن طريقها يؤلف العقل أفكاراً مركبة، فهو ذلك يفعل بها، أي يركبها، وله دخل في تكوينها على عكس الأفكار البسيطة التي ليست من صنع العقل بل ينفعل بها فحسب[٣].

وسوف نعرض فيما سيأتي لنوعي الأفكار البسيطة والمركبة:

أولاً: أنواع الأفكار البسيطة:

تنقسم الأفكار البسيطة إلى ثلاثة أنواع:

١ - أفكار مستمدة من الحواس الإنسانية.

٢ - أفكار مستمدة من الحس الباطن مثل عمليات الذاكرة والإرادة والإنتباه.

٣ - أفكار مستمدة من الحس الظاهر والباطن معاً مثل أفكار الوجود واللذة والألم والوحدة والعدد والتتابع وغيرها[٤].

وسوف نعرض للأفكار البسيطة عند لوك بشيء من التفصيل: قسم لوك الأفكار البسيطة لثلاثة أنواع حسب الحواس التي تكونها على النحو التالي:

---

(١) AN essay, A. C. Fraser, Book. II. ch. II. p. 144.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid p. 145.

(٤) AN essay Book II ch. 3. p. 148.

أفكار مستمدة من الحواس:

وهي تنقسم إلى (أ) أفكار تتكون في العقل بواسطة: حاسة واحدة مثل أفكارنا عن الألوان والنغمات والأصوات والطعوم والروائح ويذكر لوك فكرة الصلابة Solidity كمثال على ذلك النوع من الأفكار التي تتكون في عقولنا نتيجة الإحساس بحاسة واحدة.

وفكرة الصلابة تعني المقاومة التي نحسها في الجسم عند محاولة أي جسم آخر أن يحل في نفس مكانه Thisis the idea which belongs to body where by we conceive it to fill space [1].

(ب) أفكار تتكون في العقل بواسطة مجموعة من الحواس:

مثل أفكارنا عن المكان Space، والامتداد Extenion، والشكل Figure، والحركة Mation، والسكون Rest حيث تتكون في عقولنا كنتيجة لإنطباعات حسية وصلت إلى الذهن عن طريق حاستين هما البصر (العينان) Eyes واللمس Touch[2].

ثانياً: أفكار تتكون في العقل بواسطة التأمل الذاتي:

وهي الأفكار التي تنشأ عندما يزود العقل بالأفكار البسيطة التي وصلت عن طريق الحواس فيتجه إلى داخله لينظر في نفسه ويلاحظ عملياته التي يقوم بها بصدد هذه الأفكار ويجعلها موضوعاً لتأملاته.

ويمكن لأي شخص أن يلاحظ في نفسه أهم عمليتين عقليتين هما الإدراك Perception أو التفكير Thinking والإرادة Willing أو الرغبة Volition ويذكر لوك بالإضافة إلى هاتين الفكرتين بعض الأفكار الأخرى مثل التذكر Remenberance والتمييز Discerning والتعقل Reasoning والحكم Judging

---

(١) Ibid ch IV p 152.

(٢) AN essay, Chapter. v. p. 159.

والمعرفة Knowledge والصدق Faith.

ثالثاً. أفكار تتكون في العقل بواسطة الإحساس والتأمل الذاتي معاً؛

وتمثل هذا النوع من الأفكار أفكارنا عن اللذة Pleasure، أو السرور Delight، وعكسها الألم Pain، أو عدم الإرتياح Uneasiness، والقوة Power، والوجود Existence، والوحدة Unity، والتتابع Succession [1]، وإذا فصلنا هذه الأفكار فسوف نجد أن أفكارنا عن اللذة والسرور أو الألم، أو عدم الرضا إنما ترتبط بأفكارنا الناجمة عن الإحساس والتفكير معاً من حيث أن هذه الأفكار إنما تمر بمرحلتين متوازيتين يمثلان حالة خارجية تشعر معها داخلياً بالفرح أو السعادة أو الحزن أو الألم.

أما فكرتنا عن القوة فتأتي إلى العقل عن طريق الإحساس والتفكير أيضاً، فإن الحوادث الخارجية من حزن أو فرح أو سرور إنما تبعث في نفوسنا قوة تجعلنا نقوم بأفعال للتعبير عنها.

وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر ينبغي أن نشير إلى الصفات الأولية Primary qualities والصفات الثانوية Secondary qualities الموجودة في الأشياء، والقادرة على إحداث هذا التغير فينا وأضاف لوك إلى هاتين الصفتين القوة الخالصة Barely power.

٦ ـ ماهية الصفات الأولية والثانوية:

الصفات الأولية: Primary Qualities

وهي الصفات التي يتقوم الشيء بها ولا يكون له وجود، بدونها، وتتميز بالثبات، وهي أساسية وملازمة للشيء على الدوام مهما تعرض للتغير.

---

(١) Ibid, p. 159.

وفي الكتاب الثاني من (المقال ـ القسم ١٣ ـ الفقرة ٩) يعرض لوك في صورة تحليلية لماهية الصفات الأولية في الشيء فيعطي مثالاً بالشكل والإمتداد والصلابة بحبة القمح المنقسمة Agrain of wheat يقول «إننا إذا تناولنا حبة من القمح وقسمناها قسمين سنجد أن كل نصف منها ما زال محتفظاً بدرجة من الصلابة والإمتداد، وأيضاً بشكل معين، وإذا قمنا بتقسيم كل نصف إلى نصفين فسنلحظ إستمرار إحتفاظ كل جزء بهذه الصفات (الصلابة والإمتداد والشكل) لذلك فإن تقسيم الشيء إلى أجزاء لا يزيد «أو ينقص من صفاته الأولية الثابتة التي هي ضرورية ولازمة لوجوده»[١].

الصفات الثانوية: Secondery qualities

وهي عكس الصفات الأولى فهي ليست أساسية أو ضرورية بالنسبة لبقاء الشيء، كما أنها لا تكمن فيه أو تلازمه، لكنها مجرد قوى Powers تؤثر فينا فتنتج إحساسات متباينة عن طريق صفاتها الأولية مثل الألوان والأصوات والطعوم والروائح وقد سماها لوك بالثانوية لأن وجودها ليس ضروري في الشيء فقد توجد وقد لا توجد[٢] كما يمكن للشيء أن يوجد بدونها فوجود المقعد مثلاً لا يستلزم وجود لون ما كالبني أو الأصفر أو الأبيض فاللون صفة ثانوية يمكن أن يوجد المقعد بدونها، ولكن لا يمكن أن يوجد بدون قاعدته، أو أرجله الأربعة، فالشكل هنا صفة أولية أساسية ملازمة له بحيث لا يمكن تصوره بدونها.

ويضيف لوك إلى الصفات الثانوية القوى الخالصة ويقصد بها القوة الموجودة داخل الأشياء بالقوة مثل القوة الموجودة داخل النار Fire والتي يمكن إضافتها إلى الصفات الثانوية فهي على حد قوله، تحدث تغييراً في لون الشمع وشكله

---

(١) **AN Essay** book 11, Ch IIV sec 9, p 170.

(٢) **AN Essay,** book 11, Sec VIII par. 12 - 13 p. 171 - 172.

وصلابته ـ إنها صفة من الصفات الموجودة في النار القادرة على إحداث فكـرة في ذهني عن الإحساس بـالـدفىء أو الإحتراق»[1] .

٧ ـ الإدراك الحسي : Perception

وقبل أن ينتقل لوك لشرح الأفكار المركبـة يذكـر مسألـة الإدراك الحسي وقد أشار في الكتـاب الثاني من «المقـال» إلى أن الإدراك الحسي هو الـوظيفة الأولى التي يقوم بها العقـل بالنسبـة لإحساسـاتنا وأفكـارنا ومن ثم فهـو الفكرة الأوليـة والبسيطة التي يمـدنا بها التفكير Thinking[2] ويميـز لـوك بين التفكيـر الذي يقوم بعملية التأليف بين الصـور الذهنيـة فيحولهـا إلى صور مـركبة وبين الإحساس أو الإدراك الحسي الذي يعني إنتقال التأثير من الموضـوع (الشيء) إلى العضو الحسي .

ويتعذر لوك في إيجاد تعريف جامع مانع[3] لمسألة الإدراك فيعرفه بخبرة الإنسان الذاتية، وبإعتبـاره عمليـة عقلية فـإنه يستلزم وجـود العقل ومـع ذلك فلن يكون للإدراك الحسي معنى إذا لم يتم عن طريق العقل، وهناك قوة يعـرفها لـوك بقوة الإحتفـاظ Retention أي القوة التي تحتفظ بالأفكار البسيطة التي تتكون في العقل والإحتفاظ يكون عن طريقين :

الطريقة الأولى : يسميها لوك بالتأمل Contemplation[4] وتعني الاحتفاظ بالفكرة في الذهن لفترة معينة بحيث لا تغيب عن عقل الإنسـان أو تتلاشى من إنتباهه .

الـطريقة الثـانية : ويسميهـا لوك بـالتذكـر The memory[5] وتعني إحيـاء

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid, Book II ch IX paral. p. 183.

(٣) عزمي أسلام ـ جون لوك ـ نوابغ الفكر العربي ـ دار المعارف بمصر ٩٦٤ ص ٧٦ .

(٤) AN Essay book 11, cha X para 1. p. 193

(٥) Ibid.

الصـور الذهنيـة، الأفكار من جـديد بعـد أن تكون قـد بعـدت عن مخيلتنـا أو نظرنا.

ثانياً ـ أنواع الأفكار المركبة

أولاً : الأفكار المركبة من أعراض:

وهي تمثل أفكار أشياء لا تقوم بذاتها، أي توجد من تلقـاء ذاتها، وهـذه الأفكار تصنف إلى قسمين.

١ ـ أعراض بسيطة : Simple modes

كفكرة العدد المركب من تكرار الوحدة، وكذلك فكـرة الزمـان والمكان المركبين من أجزاء متجانسة[1].

٢ ـ أعراض مركبة : Compound modes

وهي الأفكـار التي تتألف من معـاني بسيطة مختلفـة مثل معنى الـواحـد والصـداقـة والمجـاملة ، أو معنى الجمـال الـذي يتكـون من معنى الجمـال المركب من اللون والشكل[2].

ثانياً: الأفكار المركبة عن الجواهر:

وهي تمثل أفكار الأشياء التي توجد بذاتها كفكرة الإنسان ويقسمها لـوك إلى قسمين:

١ ـ جواهر مفردة : Simple subtances

وهي تمثل أفكارنا عن شخص ما، أي إنسـان ما مثـل محمد أو علي أو غيرهم.

---

(١) AN Essay, Book 11 chap 3 p. 148.

(٢) Ibid.

٢ ـ جواهر جامعة : Collective substances

مثل فكرتنا عن الجامعة أو المدرسة أو المجتمع أو النوع الإنساني بوجه عام [١].

ثالثاً ـ الأفكار المركبة عن العلاقات : Relation

وهي أفكار مستمدة من التأليف بين فكرتين مختلفتين، مثل أفكار العلية، وعلاقات الزمان والمكان والغيرية [٢] والمقصود بالعلاقة هنا هي الأثر الذي يحدث في الذهن من تأثير علاقة شيئين مختلفتين أحدهما بالآخر، فإذا حصلت السابقة ظهرت اللاحقة، ويتم هذا التوقع بطريقة ذاتية بحتة لا دخل فيها للضرورة أو الموضوعية [٣].

فكرة اللامتناهي : Infinite

يذكر لوك في مقاله أن فكرة اللامتناهي ليست بسيطة كما تصورها ديكارت، لكنها فكرة مركبة ومكتسبة في حالة إضافتها إلى الله أو الزمان أو المكان على حد سواء، وتنتج هذه الفكرة من إضافة كمية معلومة بالتجربة إلى كمية أخرى مثلها، وطبقاً لذلك فلا يمكن تصور حدود للامتناهي من حيث أنه ليس موجود بالفعل فهو ناتج من تأثير عملية الجمع والإضافة التي تم بفعل العقل الإنساني ولذلك فإن فكرته تشير فحسب إلى إمكانية إضافة وحدة من الزمان أو العدد أو المكان مماثلة إلى ما لا نهاية ولذلك فقد أصبح التركيب وليس البساطة هو الطابع المميز للامتناهي [٤].

---

(١) Ibid.

B. ii. ch x ii sec 7. p. 26.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

(٤) AN essay book ii, sec 4, p.·37.

وبالإضافة إلى انواع الأفكار البسيطة والمركبة، قسم لوك الأفكار من حيث مطابقتها للواقع إلى ثلاثة أنواع هي:

أ ـ أفكار إما حقيقية Real وواقعية أو وهمية Fantastical.

ب ـ أفكار إما كاملة Adequate أو ناقصة Inadequate.

ج ـ أفكار إما صادقة True أو كاذبة False.

٨ ـ موقف لوك من الأفكار المركبة:

بينا فيما سبق موقف لوك من الأفكار البسيطة، أما موقفه من الأفكار المركبة فيبدو غير واضح إلى حد بعيد، إذ أن عملية التركيب التي ذكرها تتم عن طريق ما نستطيع إدراكه بالحواس بالإضافة إلى التعارض البين الذي يبدو نظريته التي ترد موضوعات الأشياء إلى تضافر عاملي الحس والتفكير البسيط، وبين ما تعارف عليه في تاريخ الفلسفات من تسليم بموضوعية الأشياء الخارجية، وإستقلالها عن الذهن العارف[1].

ومن الجدير بالملاحظة أن ثمة صعوبات اعترت تصنيفه للأفكار ولنأخذ مثالاً على ذلك بفكرة التفاحة، وهي شيء جزئي فانها تتركب من فكرة الإستدارة والمذاق الحلو والحمرة، ولكننا قد نتساءل بعد ذلك عن الذي يبقى بعد هذا للفكرة العامة للتفاحة؟ فكأن الفكرة المركبة عبارة عن تجميع لصفات معينة بدون رابط بينها من حيث أنه لا مجال لإدراك الفكرة العامة عن التفاحة وهي التي ينطوي عليها المعنى الجوهري لها، ومن هنا جاء تصور لوك للجوهر غامضاً.

---

(١) محمد علي أبو ريان: تاريخ الفلسفة الحديثة. دار الكتب الجامعية ١٩٦٩. ط أولى ص ١٢٤.

الفصل الرابع

تصور الجوهر عند لوك

*** تمهيد**

١ ـ أنواع الجواهر عند لوك.

أولاً: الجوهر الروحي اللامتناهي (الله).

ثانياً: الجوهر الروحي المتناهي (النفس).

ثالثاً: الجوهر المادي.

٢ ـ المعرفة عند لوك (أنواعها ـ حدودها).

(٠) أنواع المعرفة.

١ ـ المعرفة الحدسية.

٢ ـ المعرفة البرهانية.

٣ ـ المعرفة الحسية.

(ب) حدود المعرفة.

تمهيد

لقد كانت مشكلة الجوهر مثار بحث وجدل المفكرين في عصر لـوك في نهاية القـرن السابع عشر، وهو العصر الذي نهضت فيه العلوم، وإزداد الإهتمام بالعالم المادي، وعلى الرغم من إشارة لوك إلى وجود الجوهر، بيد أنه يصرح بأنه لا يعلم عنه شيئاً، وكان في إمكانه رفض هذه الفكرة، باعتبـاره، فيلسوفـاً تجـريبيـاً يؤمن بمعـطيـات الحس، لكنـه يؤكـد في الـوقت نفسـه على أهميـة وضرورة تناول هذه الفكرة.

وفكرة الجوهـر ليست فكرة بسيـطة عن الحس أو التفكير، كمـا إنها من جهـة أخرى ليست ناتجة من الأفكار البسيطة الصادرة عنهما.

ويبدو أن محاولة لوك في سبر غور هذه المشكلة قد أورثته الرأي القـائل بأن العالم المادي موجود، ولم يرى ضرورة في محاولـة إثباتـه أو البرهنـة عليه كمـا كان يعتقـد أسوة بغيـره من علماء عصـره أن المقصـود بـالجسم الجـزئي المادي هو الجوهر، كما يطلق عليه الفلاسفـة، وأن هذا الجـوهر هـو المصدر الأول والعلة الـرئيسية لإدراكنـا الحسي، ولذا فـإنه لن تـوجد في عقـولنـا ثمـة إحساسات أو أفكار، وبالتالي لن تقوم معرفة تجريبية ما لم يفترض وجود جسم جزئي مستقل عنا وعن إدراكنا (يقصد به الجوهر) وفي هذا الصدد يـذكر رسـل في تاريخ الفلسفـة الغربيـة: «لقد تصـور لوك غمـوض فكرة الجـوهر، وعـدم جدواها، وكانت من الأفكار السـائدة والمسيـطرة على فلسفات عصـره، ولكنه لم ينكرها على الإطلاق»[1].

---

(١) Russel, B; A History of western Philosophy book 3 ch 13 p 367.

فالجوهر عند لوك فكرة مجهولة تفترض فحسب لتكون حاملاً للكيفيات المختلفة التي لا يمكن أن توجد بدون محور أو حامل Upholdig وهو ما نسميه بالجوهر(١).

والحامل الذي يقصده لوك بالجوهر، حامل الكيفيات المختلفة غامض مبهم يفترض لإحتياج الصفات إليه يقول لوك: إن من يسأل نفسه عن فكرة الجوهر فلن يجد في نفسه إلا إفتراض فحسب لشيء لا يعرفه إلا على إنه دعامة لهذه الصفات القادرة على أن توجد فينا الأفكار البسيطة.

وهذه الصفات تسمى بالأعراض «فإذا سأل شخص ما عن الموضوع الذي يرتبط به اللون أو الوزن فلن يجد سوى كلمة «الأجزاء الصلبة الممتدة «وإذا سأل وما هو ذلك الشيء الذي ترتبط به صفتا الصلابة والإمتداد؟» فإنه لن يصبح في موقف أحسن من موقف الهندي الذي تصور أن العالم مرتكز على فيل كبير، ولما سئل وعلى أي شيء يقف الفيل؟ Elephant كانت إجابته «على سلحفاة كبيرة Great tortoise وحين إضطر إلى معرفة تلك الدعامة أو العلة أو الأصل المجهول التي يفترض وجودها لنركز عليها الصفات التي تدرك وجودها بحواسنا، والتي لا يمكن تصور وجودها بدون شيء يدعمها، فقد سمى هذه الدعامة بالجوهر Substance(٢) أو الحامل تلك الفكرة المزعومة التي يفسر زعمنا لها تلازم الصفات في شيء واحد يحملها، ولا يمكن تصوره بدونها وحيث أننا إعتدنا على أن ننسب الصفات لشيء أو محور أو جوهر أو أصل(٣).

وهكذا تبدو فكرة لوك عن الجوهر غير متسقة مع مذهبه الحسي التجريبي، ومع ذلك فهو يرجع معرفتنا بالعالم الطبيعي إلى الإدراك الحسي

---

(١) AN Essay Book. II ch 23 para 2 p 392.

(٢) AN Essay Book, II,ch 23 para 2, p. 393.

(٣) Ibid.

الذي لا يتأكد في نظره بدون وجود جواهر تحمل الصفات الحسية التي تؤكد وحدة موضوعات المعرفة.

وثمة غموض يعتري أفكاره أيضاً عن الزمان والمكان والعدد، واللامتناهي، والعلية، والأفكار الرياضية، يحاول لوك الفكاك منها باصطناع حلول هشة. كما يجب أن نلاحظ أن هذا الموقف التجريبي الملتزم في تفكيره وإرجاعه جميع الأفكار إلى تجربة الحس والإستبطان معاً كان حجر عثرة كبير في معالجته لجميع هذه القضايا التي تبدو غامضة وغير مقنعة.

(١) أنواع الجواهر عند لوك

ذكرنا من قبل أن لوك قد زعم فكرة الجوهر لكي تكـون حامـلاً للصفات القادرة على إجاد الأفكار البسيطة في عقولنا.

وتنقسم الجواهر عنده إلى قسمين.

أولاً: جواهر مادية Material substances

وتمثلها الأجسام.

وثانياً: جواهر روحية Spiritual snbstances

وتنقسم إلى نوعين.

أ ـ جواهر روحية متناهية Finite

وتمثلها النفوس.

ب ـ وجوهر روحي لا متناهي Infinite

وهو الله.

وبهذا التقسيم يعرض لـوك لثلاثـة أنواع من الجـواهر مـادية، وروحيـة، وروحية لا متناهيـة، وكان ديكـارت قد أشـار من قبل إلى وجـود جواهـر ثلاثـة كذلك هي النفس باعتبارهـا جوهـراً روحياً متنـاهياً، والله أو الجـوهر الـروحي اللامتناهي، ثم الأجسام التي هي الجوهر المادي أو الإمتداد، وسوف نعـرض بشيء من التفصيل لهذه الأنواع الثلاثة من الجواهر عند جون لوك.

أولاً: الجوهر الروحي اللامتناهي (الله).

أ ـ وجود الله وصفاته:

الله هو الجوهر الإلهي خالق النفس والعـالم، وهو جـوهر لا متنـاه يعجز الإدراك المحدود للإنسان عن الإحاطة به، أما مفهوم الـلاتناهـي فهـو معنى لا

حق للاتناهي، واللانهاية تعني تصور تدرج لا نهاية له غير متحقق فعلياً[1].

ويرى لوك أن جهل الإنسان لما هية الله تجعله يركب فكرة عنه من خلال أفكار الوجود، والمعرفة، والقوة، والسعادة، واللانهاية والخلود[2]

ب - حدود معرفة الله:

يذكر لوك في «المقال» أن الإنسان يجهل ماهية الله ولذلك تصبح معرفته غير فطرية ومن ثم تحتاج إلى برهان عقلي، غير أن عقلنا قاصر عن إدراكها. والمعرفة بالله ليست فطرية وذلك لسببين:

السبب الأول: هو الجهل بماهية الله، وقصور العقل عن إدراكها، فلو كانت معرفته فطرية لتمت معرفة العقول بماهيته المجهولة.

السبب الثاني: هو وجود الملحدين الذين لو تمكنوا من معرفة الله بفطرتهم لصاروا مؤمنين به بلا شك.

لهذين السببين ينكر لوك أن تكون معرفة الله فطرية، ومن ثم فهي تحتاج إلى برهان عقلي غير أن عقلنا قاصر عن إدراكها، والإحاطة بها.

ج - دليل لوك على وجود الله:

يحاول لوك التدليل على وجود الله بالإستناد إلى ضرورة التسليم بوجود الأولى القديم إستناداً إلى وجود الحادث المخلوق معلولاً له فيرى أن الموجود الحادث الجزئي (الجوهر النفسي) يتطلب موجوداً قديماً كلي القدرة خلق العقل والمادة، ونحن نلمح وجه شبه بين دليل لوك ودليل الواجب والممكن عند المسلمين، ذلك الدليل القائم على ضرورة التسليم بوجود الأزلي القديم إستناداً إلى وجود الحادث المخلوق معلولاً له.

---

(1) AN Essay Book 11, ch 17, para 3, p 277.

(2) Ibid Book II, ch 23 sec 35 p 42.

ويتصور لوك أنه بهذا الدليل قد برهن على وجود الله وماهيته في آن واحد، غير أن برهانه يقوم على مبدأ العلية، كما يعبر عن فكرة مركبة، وغير موضوعية.

ثانياً: الجوهر الروحي المتناهي (النفس)

أ ـ إثبات جوهر النفس:

يحاول لوك إثبات جوهر النفس عن طريق الشعور الذاتي، بالأنا، وفحوي هذا الدليل تذكر النفس في الحاضر لأفعالها الماضية ومن ثم يصبح الوعي النابع من الذاكرة هو سند وجود الذات (الأنا)[1].

وقد ذهب لوك يبرهن على وجود الجوهر الروحي على اعتبار وجود فكرتنا عن الجوهر المادي، مع أن فكرتنا عن الأخير تحتاج هي الأخرى إلى البرهنة على وجود شيء ما برده إلى شيء آخر يحتاج هو أيضاً إلى البرهنة عليه.

وهكذا تبدو أفكار لوك عن الجوهر النفسي قلقة مضطربة لسببين رئيسيين هما:

الأول: تصوره لأفكار النفس محصلة للحس الباطن، أو للتجربة الداخلية تعد أفكاراً في المرتبة التالية بالقياس إلى أفكارنا عن الموضوعات الخارجية.

ثانياً: غموض موقفه في معرفة ما إذا كانت النفس من طبيعية روحية أو مادية، بمعنى هل خلقت المخلوقات باعتبارها جواهرا مادية بسيطة ثم وهبها الله القدرة على التفكير.

إن تسليم لوك بوجود الجوهر الروحي النفسي تكتنفه ثمة صعوبات وقد

---

(١) AN Essay 5 II ch 23 para 33 p 48.

عبر عن ذلك في المقال بقوله «كلما تعمقنا في طبائـع الأشياء فـإننا لا بـد وأن نقـع في الظلام، ونتزلق في الغموض، كمـا تواجهنـا الكثيـر من الصعـوبـات والحيرة، ثم نكتشـف في النهاية أننا لم نزل في ظلام وجهل»[1] .

(1) « and aive Further into the nature of things we Fallinto darkness and obscurity per- plexedness and difficulties and Candiscover nothing FFurther but our own blndness and ignorance

القوى الإدراكية للنفس:

تتمثل قوى النفس الإدراكيـة في قوتين الأولى هي: قـوة الإدراك الحسي Perception التي توصل التنبيهـات إلى العقل لكي يتم الإدراك. والقـوة الثانيـة هي قـوة الإحتفـاظ Retention التي تحتفظ بالأفكار البسيـطة في العقـل على صـور مختلفة كـالتأمـل Reflection، والتـذكـر Memory والتمييـز Disscerning والمقارنة Comparing، والتركيب Compound والتسمية Noming [1].

ثـالثـاً: الجوهر المادي: Corporeal substance

بعـد عرض لـوك لفكرة الجـوهر الـروحي والجوهـر اللامتنـاهي، يبسط فكرته عن الجوهر المادي في «المقال» فيرى أنها تتكون لدينا عن طريق ثـلاثة أنواع من الأفكار هي:

١ ـ أفكارنا عن الصفات الأولية للأشياء[2] Primary qualities.

٢ ـ أفكارنا عن الصفات الثانوية للأشياء Sccondary qualities.

٣ ـ أفكارنا عن القدرة الكامنة في كل جوهر مادي والتي تدفعـه لأحداث أي تغيير في الصفات الأولية لشيء آخر، أو في استقبـاله هـو نفسه لمثـل هذا التغييـر، وقد سمى لـوك هذه القـوى بالقـوى الإيجابيـة أو السلبية Active and Passive Power ومثـال ذلـك التغييـرات المباشرة التي تحدثها قطعة مغناطيس Loadstone في جزئيات الحديد[3].

فإذا جمعت هذه الأفكار البسيطة السابقة تكونت لدينا فكرة مركبة جديدة عن الجوهـر المادي.

---

(١) AN Essay, book II, ch. 23 para. 23.

An Essay, B II ch 23 sec 2391.

(٢) Ibid.

(٣) An essay sec 9 p 400

أما الأفكار الـوهمية Fantastical Ideas عنـد لوك فهي مـوجودة من حيث أننـا نعلم بوجـودها في الـواقع، وإن لم تصـل هذه المعـرفة إلى درجـة كمال معرفتنا بالنفس أو بالله.

المعرفة التجريبية الحسية عند لوك:

يؤكد لوك على أن الحواس هي مصدر معرفتنا بـالعالم الخـارجي، ومن هنا تأتي أهميتها وضرورتها، أما ديكارت فقد شـك في أهميتها، وبـرهن على خداعها وزيفها، وأنكر الثقة فيها كمصدر للمعرفة اليقينية، بينما أن لوك أولاها أهمية بالغة بوصفها المعين الأول للأفكـار، فالحـواس هي مصدر أفكـارنا عن كل ما يحيط بنا فمن فقد حاسة، فقد معها، معرفته بالأفكار المتعلقة بها.

لكن لوك يرى مع ذلك أن الأفكار التي لدينا عن الأجسام ليست مـطابقة لها تماماً، كما إنها لا تمثل صور لأي أجسام خارجية تشبهها، إنها رمـوز تشير إليها فحسب. فجواهر الأجسام مجهولة لنا (غموض مشكلة الجوهر عنـد لوك) غيـرأنها حـاصلة على كيفيات خـاصة تثيـر فينا أفكـاراً لا تمثل إلا مجـرد تعبير إنفعالي لمدى تأثيرنا بها.

والكيفيات على نوعين: أوليـة كالامتـداد والشكل والصـلابة والحـركة، وهي موضوعيـة ولازمة لـوجود الشيء على الـدوام، وثانـوية كـاللون والصوت والـطعم والرائحـة، وهي لا تـوجـد في الجسم الخـارجي بـل فيمـا ينجم عن الكيفيات الأولية من آثار على الحواس.

ويـرى لوك أن معـرفتنا عن العـالم يجب أن تخضع لمنهـج المـلاحـظة والاستقراء سواء كان مصدرهـا خارجيـاً (الحس) أم داخليـاً (الإستبـطان) ولهذا فإنه ينكر المعرفة الميتافيزيقية، ويرسي دعائم المعرفة التجريبية الحسية.

أفكارنا عن الجوهر المادي وغير المادي:

يذكر لوك أن تصورنا عن الجوهـر المادي يتمثـل في فكرتين الأولى هي

فكـرتنا عن تمـاسك وتـلاحم الجزئيـات المنفصلة التي تكـون مـادة الجسـد، والثـانية فكـرتنا عن القـدرة الكامنـة في هذه الجـزئيات والقـادرة على توصيـل الحركة وإستمرارها في الجسد[1] بينما أن فكرتنا الأوليـة عن الجوهـر الروحي تتمثل في ملكتي التفكير والإرادة وهي القوة التي تمكن الجسم من الحركـة أو السكون عن طـريق التفكير. ويعرض لـوك في «المقال» دور الإرادة في «دعم الحرية» حريـة إختيار الإنسان في أن يتحرك لشيء ما أو يتوقف عن الحركة.

كما يوجز أفكارنا عن الجوهرين المادي والروحي فيذكـر أن فكرتنـا عن الجـوهر المـادي تتمثـل في تصـوره جـوهـراً صلبـاً ممتـداً An extended solid substance قادراً بقوة الدفع By mpulse على توصيل الحركة في حين أن فكرتنا المركبة عن الروح (النفس) تتمثل في تصورها جوهراً حين أن فكـرتنا المـركبة عن الروح (النفس) تتمثل في تصورها جوهراً روحياً غير مـادي يتميز بـالتفكير والإرادة والقدرة على إحداث الحركة في الجسم عن طـريق الإرادة Willing أو التفكير Thought[2].

---

(١) AN Essay B II ch 23 sec 17 p 407.

(٢) AN Essay Book II ch 23 sec 22.

(٢) المعرفة عند لوك

أنواعها ـ حدودها :

(أ) أنواع المعرفة :

تنقسم المعرفة عند لوك إلى أربعة أنواع تندرج حسب درجة يقينها وهي على التوالي :

١ ـ المعرفة الحدسية : Intuitive know Ledge

٢ ـ المعرفة البرهانية : Demonstrative know ıedge .

٣ ـ المعرفة الحِسية : Sensible know ledge .

٤ ـ معرفة الإعتقاد عن الإيمان Faithful know ledge وسوف نحاول إلقاء الضوء على كل معرفة من هذه المعارف على حدة :

١ ـ المعرفة الحدسية : Intuition

(not so clear as Intuitive know ledge)

يطلق لوك على هذا النوع من المعرفة إسم المعرفة البديهية أي التي لا يحتاج الإنسان إلى البرهنة عليها[١] كما لا يستطيع القيام بذلك. يقول عنها في المقال «إنه الحدس الذي تعتمد عليه جميع معارفنا المؤكدة والواضحة»[٢] .

والمعرفة البديهية هي الواضحة بذاتها فالأبيض غير الأسود، والمربع غير المثلث والإنسان غير الحيوان. وعلى مستوى العدد فالعدد ٤ أصغر من العدد ١٠، وأكبر من العدد ٢ ، كما أن للمثلث ثلاثة أضلاع ، والمربع شكل هندسي ذو أربعة أضلاع . وقد تأدي تعريف لوك للمعرفة بأنها إدراك للاتفاق

---

(١) AN Essay Book, IV ,chap II para 1 p 177.

(٢) Ibid. p. 177

والاختلاف بين الأفكار إلى هذا النوع البديهي أو الحدسي، وذلك يعني أن معرفتنا باللون الأصفر تختلف عن معرفتنا عن اللون الأزرق وإذا نظرنا إلى الأشكال الهندسية لوجدنا الاختلاف بين بينها فالدائرة تختلف عن المثلث والمعين يختلف عن الدائرة [1] وعلى الرغم من هجوم لوك على أنصار المعرفة الفطرية وإنكاره لمبادئها وأفكارها إلا أننا نجده حين يذكر المعرفة الحدسية يكاد يقترب في مفهومها من مفهوم المعارف والحقائق الفطرية بصفة عامة.

٢ ـ المعرفة البرهانية: Demonstration

هي ذلك النوع من المعرفة التي يجب البرهنة على يقينها والتأكد من مدى سلامتها وصحتها بعد إقامة البرهان عليها[2]. فليس الحدس هو طريق الإنسان الوحيد للمعرفة.

ويقسم لوك المعرفة البرهانية إلى قسمين رئيسيين هما:

أولاً: الاستدلال الرياضي:

من حيث أن النظرة الرياضية تتسم بالصدق واليقين فالمعرفة بالحقائق الرياضية من قبيل المعرفة البرهانية وليست الفطرية كما ذكر ذلك ديكارت، الذي تصور أن الحقائق الرياضة عند لوك صادقة يعتمد صدقها على البرهان[3] أما القسم الثاني للمعرفة البرهانية فهو الاستدلال على وجود الله: والذي يحاول لوك إثباته بطريق العلة الأولى، حيث يسلم فيه بمبدأ العلية باعتباره مبدأ لا شك فيه وغير قابل للبرهنة، وفحوى هذا الدليل أن كل ماله بداية فلا بد وأن تكون له علة، فإذا كان هو بوصفه إنساناً له بداية فمن الضروري أن تكون هناك علة تسببت في وجوده، فهو يحاول إثبات وجود الله

---

(١) AN essay: b 4. ch 2, pora 6, p. 180 - 181.

(٢) Ibid.

(٣) AN Essay - Book 4, chap, 11 para 9. d. 182

كفكرة ذهنية فحسب، وليس مستغرب أن يكون هذا هو موقف لوك وهو فيلسوف الفكر والعقل الذي يحاول أن يثبت وجود عالم الفكر لا عالم الأشياء لذلك يعود ويذكر أن الوجود الإلهي من الموضوعات المستحيلة التصور بالنسبة للإنسان وأن العقل عاجز عن الوصول للماهية الحقيقة للألوهية.

٣ ـ المعرفة الحسية:

أما المعرفة الحسية وهي النوع الثالث الذي يذكره لوك من درجات المعرفة فتعني العلم والإحساس بوجود العالم الخارجي[١]. وهي معرفة تقل في يقينها عن اليقين الموجود في المعرفة الحدسية والبرهانية، وتتأتى هذه المعرفة من العالم الخارجي الذي ينبغي أن نقر بوجوده. (عالم المحسوسات) والذي لولا وجوده لما استطعنا أن نحصل على أفكارنا، وهي مادة الفعل ولكي يؤكد لوك على أهمية الأفكار ذهب يؤكد واقعية وحقيقة العالم المادي، وإنه لا محل للوهم أو الخداع في حقيقته فبرهن على وجود العالم الخارجي بدليل الإدراك الحسي[٢] الذي يعني إثبات وجود العالم الحسي عن طريق الإدراك الواعي، والحقيقي له. والمعرفة الحسية شرط ضروري لقيام الأنواع الأخرى من المعرفة وهي لا تحتاج إلى برهان بعد أن عرضنا لأنواع المعرفة الحدسية والبرهانية والحسية يفترض لوك وجود نوعاً رابعاً من المعرفة هي المعرفة الإعتقادية التي تأتي الإنسان عن طريق الإيمان بالمعتقدات الدينية، وهي ذلك النوع من المعرفة الذي لا يمكن البرهنة عليه لسموه عن مستوى مداركنا وحواسنا، بيد أننا نتمسك به بشدة عن طريق الاعتقاد لأنه يعد سراً من أسرار الإيمان Mysteries of faith.

---

(١) AN Essay book 4. chap 11.

(٢) Ibid.

(ب) حدود المعرفة عند لوك.

Extent of human knowledge

بعد أن عرض لوك لدرجات أو أنواع المعرفة، نجده يبحث في مسألة حدودها فيذكر أن معرفتنا محدودة بالأفكار[٢] التي تمثل الأساس الأول للمعرفة، إذ يستحيل معرفة شيء من الأشياء لا تتكون لدينا عنه فكرة من الأفكار، وعلى الرغم من أن الحواس هي التي تمدنا بالأفكار عن العالم والأشياء الواقعية، فإن لوك يتفق مع ديكارت في أنها ليست المصدر اليقيني للحصول على معرفة كاملة عن العالم، فالمعرفة الحسية ليست محل صدق مطلق أو يقين نهائي لأن النظرة الكلية عن طريق العينين لا تعطينا رؤية جزئية أو تفصيلية عما نراه يقوم بالفعل في الواقع حقيقة، كما أن عملية سماع الأذن للأصوات لا تنطوي على تحديد دقيق لموجات الصوت أو قياسها لكننا نسمع وحسب، ولهذا السبب ذهب لوك إلى القول بقصور المعرفة الإنسانية وإنه لن يستطيع معرفة الماهيات غير كائن آخر يؤتي من القدرة والقوة مالا توجد عند الإنسان ويبرز عدداً من المبررات التي تثبت قصور المعرفة اليقينية منها عجز الإنسان عن إدراك العلاقات الضرورية بين صفة محسوسة[١] أولية أو ثانوية، وأخرى، كما أنه يعجز أيضاً عن إدراك العلاقة الضرورية بين تلك الصفات المحسوسة، وبين الجوهر الذي يحملها لهذا فقد إنتهى لوك إلى أن لمعرفة الإنسان حدوداً يقف عندها حتى أن عقله لا يستطيع بما يحتويه من أفكار أن يمنحه معرفة كافية عن الأشياء، ثم يختلق بعد ذلك بعض المسائل الجدلية المثيرة يذكر منها: ماذا لو كانت المادة مفكرة، وبذلك يمكن الإستغناء عن العقل الإنساني ومن ثم ينكر مذهب الثنائية الذي يتصور أن الجسد مكون من جوهري النفس والجسد، وأن العالم الطبيعي مكون من مادة وعقل يختلف كل منهما في طبيعته، ويقصد لوك من هذا الموقف تصور خلق الله للمادة في العالم، وهي متضمنة للفكر بدلاً من أن يخلقها مجردة منه، بعد ذلك يضيف إليها الإنسان أو الجوهر المفكر الروحي، ويبدو أن لوك لم يكن يقصد من قوله

هذا التعقيد في المخلوقات ولا إثبات أن المادة جوهـر مفكر من جهـة أخرى، وإنمـا أراد فقط أن يثبت عجز العقـل عن فهم أن مكونـات ذلك العـالم يعجز الإنسان عن الوصول إلى ما هياتها.

الفَصْلُ الخَامِسُ

النظريّة السِياسِيّة

*** تمهيد**

١ ـ مقالتان في الحكومة المدنية، ورفض الحق المقدس للملوك.

٢ ـ رسائل في التسامح، وفصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية.

تمهيد

النظرية السياسية عند لوك

نعرض في هذا الفصل للنظرية السياسية عند لوك والتي تبلورت معالمها في مؤلفيه السياسيين.

«مقالتان في الحكومة المدنية» و «رسائل في التسامح» في محاولة لإبراز أهم جوانب هذه النظرية وأهم المبادىء السياسية التي إنطوت عليها. وأثرها في نظرية السياسة في عصر لوك، وفي إثراء الفكر السياسي لمعاصريه ولاحقيه.

(١): مقالتان في الحكومة المدنية، ورفض الحق المقدس للملوك:

رأينا في الفصول السابقة كيف رفض لوك الأفكار الفطرية التي أكدتها المذاهب العقلية وخاصة عند ديكارت، ورد المعرفة الإنسانية إلى الخبرة والتجربة الحسية باعتبارهما مصدر المعرفة العقلية. وكما أنكراوك المعارف الفطرية ونادى بالمعرفة التجريبية المكتسبة فقد أنكر تمشياً مع منطق مذهبه التجريبي نظرية الحق الإلهي للملوك مؤكداً على أنهم لا يولدون، وفي دمائهم الحق الإلهي أو الفطري الذي يبررون به حكمهم المستبد وطغيانهم لرعاياهم، لأن الناس جميعاً متساوون وأحرار.

ولما كان الملوك يولدون بدون حق إلهي موروث في دمائهم ولما كانت جميع الناس متساوية منذ الميلاد، فلا بد وأن يكون لكل إنسان نفس الحقوق الطبيعية التي يتمتع بها الآخر، وعلى ذلك فلا بد أن يخضع الجميع لنفس القانون الذي أطلق عليه لوك القانون الطبيعي Natural low أو الفطري.

وبقدر ما كان رفض لوك للأفكار الفطرية هو البداية والقاعدة التي أسس عليها مذهبه التجريبي في الإبستمولوجيا، فقد كان رفضه للحق الإلهي للملوك وما ترتب عليه من تأكيد لمبادىء المساواة والحرية هو المدخل الثوري لنظريته السياسية التي تركت آثارها الخطيرة على حركات التحرر التي حدثت في أوربا القرن السابع عشر. ويعد مؤلف روبرت فيلمر «patriacha» rebert filmer الذي ظهر في العصور الوسطى متضمناً فكرة حق الملوك المقدس من بين العوامل التي دفعت لوك لكتابة آرائه السياسية، والإفصاح عن أفكاره في مبادىء المساواة والحرية. وليس أدل على ذلك من الآراء التي عرضها في «مقالتان في الحكومة المدنية» والذي ظهر تحت عنوان:

TWO treatises of government, in the former the false Principle and foundation of sir robert filmer and his followers are detected and over-

thrown - the latteris an assay Concerning the original extent and end of civil government.

وقد إستغرق كتابة هذا المؤلف حوالي عشر سنوات فقد بدأ لوك في كتابته من عام ١٦٨٠ وإنتهي منه عام ١٦٩٠، وهو يتكـون من مقالتين خصص الأولى منها لتنفيذ مبدأ «الأبوة» الـذي نادى بـه روبرت فيلمـر في مؤلفه «partriarcha» بينما خصص موضوع الثانية المرد على نفس المؤلف في فكرته عن الدولة ـ أو الإمتداد الطبيعي للأسرة الحاكمة».

وسـوف نوجـز الأفكـار الـرئيسيـة لمؤلف «الأبـوة» ورد لـوك عليهـا فيمـا سيأتي:

كان رد لوك في المقالة الأولى رفضاً لرأي روبرت فيلمر في فكـرة الحق الإلهي للملوك التي تـداولتها الجـامعات في العصـور الوسـطى، والتي نـادت بحـق الملوك المقـدس في حكم الناس بـاعتبارهم مفـوضين من مصـدر إلهي لحكم الشعب بطريقة إستبدادية ومطلقة لا ينبغي للشعب الإعتـراض عليها، أو الثورة ضدها، لأن ذلك يعني خروجاً على طاعة الملـك الذي هو ظل للأله على الأرض[1] فيجب على الشعب طاعة أحكامه وتنفيذ أوامره.

أما الرأي الثاني لفيلمر فينادي فيه بأن الدولة التي يحكمها الملك ليست سوى إمتداد طبيعياً للأسرة الحاكمة، وقد أنكر لوك أيضاً هذا الرأي وأخذ في تحليله والرد عليه في مقاتله الثانية عن الحكومة المدنية.

* نظرة سياسية إلى فكرة الحق الإلهي المقدس (Patriarcha)

يضم كتـاب الأبوة «Patriarcha» لـروبرت فيلمـر عـدداً من الأفكـار التي تشبع بها الفكر في العصر الوسيط، التي دفعت لوك للرد عليهـا في مقالتيه عـن الحكومة المدنية وهذه هي الخطوط العريضة لكتاب «الأبوة»:

---

(١) Russell. B: A History of Western Philosophy Book 1 p 942.

أولاً: للملك الحق في حكم رعاياه حكماً مطلقاً استبدادياً طبقاً لمبدأ الحق المقدس للملوك.

ثانياً: للملك الحق في وضع القوانين التي تتراءى له، والتي يسير الشعب بمقتضاها دون معارضة، لأن من المستحيل أن يضع الشعب بنفسه قانوناً يقيد به حريته.

ثالثاً: أن الدولة التي يحكمها الملك ليست سوى إمتداد طبيعي للأسرة الحاكمة التي يفوضها الإله لتولي الحكم.

وترتب على هذه الآراء التعسفية التي أطاحت بحرية الإنسان أن أصبح على الشعب الإلتزام ببعض الأوامر الخاصة بالحق الإلهي للملوك على النحو التالي:

أولاً: أنه لما كان للملك حق مقدس من قبل الله في حكم الشعب، فمن ثم يجب طاعته، وعدم الخروج على أوامره، وهذا يقتضي من الشعب ألا يعارضه أو يثور ضده مهما بلغت المساوىء. لأنه مفوض من قبل الله لحكمهم والطاعة له واجبة.

ثانياً: لما كان للملك الحق في وضع القوانين الملزمة للشعب فإنه تجب طاعتها والإلتزام بتنفيذها، وعلى الشعب ألا يتضرر من ذلك، أو يحتج على القوانين التي يصدرها الحاكم المقدس هذا من جهة، ومن جهة أخرى فليس للشعب الحق في وضع القوانين، لأنه يستحيل أن يضع هو نفسه ما يقيد به حريته.

ثالثاً: لما كان للملك الحق المطلق في حكم رعاياه فإن الدولة تصبح هي الإمتداد الطبيعي للأسرة الحاكمة، وعلى الشعب أن يخضع للحاكم خضوع أبناء الأسرة لحاكمها الأكبر، غير أن هذا الرأي قد لقى هجوماً من لوك ممثل في كتابة مقالته الثانية في الحكومة المدنية، التي ذهب في رده عليها إلى إنه من غير المقبول أن نطابق بين نظام الأسرة بصورتها القديمة، ونظام

الدولة الحاكمة أو سلطة الحكومة... بما يبرر للشعب الطاعة العمياء للحاكم والخضوع المطلق لأوامره الملكية الإلهية.

لقد هاجم لوك الآراء المتعلقة (بالحق المقدس للملوك) والتي طرحها فيلمر في كتابه ونادى بحرية الإنسان في تقرير مصيره، وبالمساواة بين الناس في الحقوق الطبيعية.

ويظهر في المقالة الثانية من الحكومة المدنية رفض لوك لأن تكون الدولة إمتداد للأسرة المالكة الحاكمة بما يفرض معه على الشعب الخضوع لأوامر الملك بصورة مطلقة، وقد أيد لوك هجومه بفكرة العودة إلى نظام الأسرة القديمة ونظام الحكم فيها، وكيف عاش الناس في حالة الفطرة (الحالة الطبيعية) التي تميزت بخاصتين يهدما رأى فيلمر هما الحرية، والمساواة - فقد عاش الإنسان في حالة الفطرة على الطبيعة ينعم بحياة يسود فيها حب الخير والتسامح، والعمل المتبادل، والقناعة، والتعاون، ومراعاة حقوق الآخرين - عاش الإنسان وهو سعيد في ظل قانون الطبيعة (الفطرة) الذي يتساوى بين الجميع كل بقدر عمله واجتهاده فصار مبدأ الحرية هو مبدأ الفطرة الذي ينعم به كل إنسان بل هو ملك له، وملك للجميع، بموجب قانون الفطرة، ومن ثم فقد أصبح عليه ألا يتنازل عن هذا الحق الطبيعي في الحرية إلا بمحض إرادته الخاصة ولمن يشاء[1].

بعد عرض التصور العام لنظرية لوك السياسية نشير بشيء من التفصيل لبعض أفكار رئيسية في هذه النظرية - كحالة الفطرة الأولى (الحالة الطبيعية للإنسان) وفكرة العقد الإجتماعي، وتصور الحكومة، وكذلك فكرة حق الثورة، وهي أفكار رئيسية وبارزة تفرض نفسها على كل من يبحث في نظرية لوك السياسية.

---

(١) Two essay civil government ch. ix p 118.

أ ـ الحالة الطبيعية الأولى للإنسان :

يذهب لوك في وصفه لحالة الإنسان الأولى إلى أنها كانت مثالية، يسود فيها السلام والطمأنينة وتشيع فيها روح المحبة والوئام بين الناس [1] وكان مبدأ المساواة بين الناس الذي منحته الطبيعة لهم هو القاعدة الأساسية لمشاعر المؤاخاة والإحسان، والقيام بالواجبات وحب الخير وتبادل المنافع وقد عرف جميع الناس في ظل القانون الطبيعي ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات نحو إحترام ملكياتهم الخاصة وملكيات الآخرين وحقوقهم [2].

في ظل هذه الحياة الفطرية الآمنة منح القانون الطبيعي للإنسان حقوقاً ثلاثة هي حق الحياة أو المحافظة عليها، وحق الحرية الذي تساوي الجميع في التمتع به، وحق الملكية الذي منح كل إنسان الحق الكامل في ملكيته الخاصة التي يعمل فيها بحرية، ويضيف إليها وينميها بجهده وعمله من حيث هي ملك خاص له [3].

وقد أشار لوك إلى مبدأ الملكيْة الخاصة التي تساعد الإنسان على إستمرار وحفظ حياته، والاستمتاع بثمرات جهده، وبرزت فكرة الملكية عنده من خلال التصور الديني بأن الله قد منح بني الإنسان الأرض لكي تكون ملكاً مشتركاً وعاماً لجميع أفراد النوع [4] كما وهبهم العقل الذي يستفيدون من

---

(١) تختلف الحالة الطبيعية بين لوك وهو بز فبينما يصفها الأول بأنها حالة سلام وأمن يصفها الثاني بأنها حالة صراع ونضال وحرب، كما تختلف صيغة ونصوص العقد الاجتماعي بينهما، وكذلك يختلف تصور السلطة، فبينما تتركز عند الأول في يد الأغلبية (الشعب) ويخضع الحاكم للقانون؛ أسوة بغيره. نجدها عند الثاني سلطة مطلقة تتركز في يد الحاكم أو الهيئة الحاكمة وبذلك بلغت الحرية أوجها عند لوك بينما قيدتها سلطة الحاكم الموناركي عند هوبز.

(٢) John Somerville. R. E. Santoni Social and Political Philosophy original Extend and endof Civil Goverment P 176.

(٣) Ibid.

(٤) «It is Very Clear that'God asking David Says palm has Givin the earh to the chidren of men.

خبراته في إصلاح حال حياتهم، لكن ذلك لم يمنع من أن يكون لكل إنسان ملكه الخاص الذي يمتلكه باعتباره حقاً له من بين الأراضي التي وهبها الله لمخلوقاته - والفيصل هنا بين الملك الخاص والعام يكون وقفاً على جهد الإنسان وعمله داخل الملك الخاص، وفي الجزء الذي يعمل فيه.ويبذل في استغلاله طاقته وهو يفعل ذلك تحت سمع وبصر أقرانه وبموافقتهم على أن هذا ملك خاص له[1] وأن كل واحد منهم له ملكيته الخاصة التي يبذل جهده فيها لإصلاح حياته، وتوفير سبل معيشته[2].

(1) Locke original: extent and end of civil government social and political philosophhy P.176

ب ـ حق الملكية وبداية الصراع :

لكن حق الملكية والمحافظة عليها أصبحت من الأمور العسيرة في حالة الطبيعة ـ إذ جار البعض على حقوق جيرانهم، وطمع الآخرين في أملاك البعض، فتفشت حالات إغتصاب الملكيات والاعتداء على الجوار، وظهرت السخرة، والطمع، وإنتشر الشعور بالسخط والظلم، والحسد والغيرة وأدى تغلب الأقوياء على الضعفاء إلى أن ساد شعور الحسد والكراهية بين الناس. وهكذا تحولت حالة الطبيعة الفطرية الآمنة من حالة سلام وأمن وحب إلى حالة حرب وخوف وكراهية، وإشتد الصراع على الممتلكات الخاصة وتحول حق الملكية الطبيعي الذي وهبته الفطرة الأولى للإنسان (والذي بمقتضاه أمن الناس الشرور باحترام بعضهم لملكيات البعض) إلى رأس حربة في صدر كل إنسان ليتحول معه مجتمع الطية الآمن إلى مجتمع حرب ونزال وصراع من أجل الحصول على الممتلكات، وتكوين الجماعات بغرض القوة والإستحواز على الأرض. فإذا بالإنسان الآمن يتحول إلى شخص متحرش عدواني متحفز للحفاظ على ملكه الخاص، ومتأهب للدفاع عنه.

بلغت هذه الحالة بالإنسان إلى التخلي عن الخصائص والخصال التي تحلي بها في الحالة الطبيعية، فبدأ في البحث عن حالة إجتماعية تتكتل فيها مع غيره وينضم إليهم بقصد تكوين مجتمع سياسي أو مدني [١].

---

(١) John Loke An Essay. civil gouvernement ch IX sec 123.

ج ـ العقد الاجتماعي : Social contract

بعد تحول المجتمع من الشكل الطبيعي الأول إلى الشكل المدني كان على الناس أن تتفق طواعية أو تتعاقد على أن ترتبط وتتحد في مجتمع يكفل لها الحياة الآمنة دون أن يحدث ما يقوض أمن هذه الحياة[1] وكان ذلك عن طريق العقد الإجتماعي.

وتعني فكرة العقد الاجتماعي، تعاقداً يضم طرفين هما الشعب والحكومة أو الملك، ولا يصبح العقد لاغياً إلا إذا أخل أي طرف منهما بالتعاقد، فإذا حدث وأهمل الملك في مسئولياته تجاه الشعب أو أخل بتعهداته أو تعدى السلطات التي خولها له الشعب تعين عزله[2]. وبموجب هذا العقد يتنازل الأفراد عن حقهم في الحياة وفق قانون الطبيعة، وعن الحق في عقاب من يخرج على هذا القانون، لذلك تتناول طبيعة العقد الموافقة من قبل الأفراد أو الأغلبية على التنازل عن جزء من حقوقهم الطبيعية الخاصة بالدفاع عن أنفسهم ومعارضة الخارجين على القانون الطبيعي إلى المجتمع ككل[3].

أما الهدف، من التعاقد فهو تنظيم حماية الحقوق الطبيعية للفرد، وما يمتلكه من حقوق مثل حق الحياة والملكية والحرية، فكأن التنازل بهذه الصيغة لا يعني تنازلاً بالمعنى المطلق لكنه تنازل عن جزء فحسب مما يمتلكه الإنسان بمعنى آخر أن الناس تتنازل في العقد الاجتماعي عما يجعلهم يمثلون أدوار القضاة والمنفذين في نفس الوقت للقانون الطبيعي فيتنازلون عن هذا الدور للمجتمع ككل[4].

---

(١) Locke, **two treatise of civil gouvernement** p 164.

(٢) Maurice cranston, **Locke on politics, religion and education** f. e. 1965 New York p. 50 - 51.

(٣) Ibid.

(٤) Maurice **Cranston; Loke on politics** p. 52.

ولقد ظلت فكرة العقد الاجتماعي حية في أذهان فلاسفة العصر الحديث مثل هوبز ولوك وروسو، بيد أنهم اختلفوا حول طريقة إستخدامها فقد جعلها الأول تبريراً للحكم الملكي المطلق، في حين أيد بها لوك الحكومة الدستورية أو الملكية المقيدة إنطلاقاً من حق الأفراد في الثورة على صاحب السلطة، أما روسو فقد ذهب مخالفاً لهوبز تماماً، ومغالياً نادى به لوك حين استخدمها ليؤيد نظرية السيادة الشعبية، «وعلى وجه العموم فقد استخدمت هذه النظرية لتأكيد ضرورة قيام السلطة في الدولة على رضا المحكومين، واقتناعهم وذلك بقدر ما تتيح للشعب أن يمارس حقوقه، وحرياته[1] «وفي الوقت ذاته فقد ساعدت النظرية على زوال الصفة المقدسة التي أضفاها فكر العصور الوسطى على الدولة بعد ما تبين أن الإنسان هو الذي شارك في خلقها، وهكذا اصبحت السلطة في الدولة أقرب إلى الأرض وعامة البشر منه إلى السماء، والسلطان الإلهي[2].

من خلال هذا المفهوم لفكرة العقد الاجتماعي نجد أن لوك يعطي الدور الأكبر والهام للمجتمع ككل، أي لمجموع الأفراد فيجعل الكلمة العليا للشعب. وليس ذلك بمستغرب على فيلسوف ثري كان يرفض مبدأ السيادة المطلقة للحاكم أو الملك وكان يريد للشعب أن يمسك بمقاليد الأمور لذلك فقد ظلت الحقوق الطبيعية للأفراد وهي مبادىء الحياة Life، والحرية Freedom، والملكية Property هي مصدر القوة والسيادة في المجتمع المدنى كما كانت من قبل في حالة الطبيعة، وهذا يعني أن الشعب هو المصدر الأساسي ومن ثم فإن له مطلق الحرية في إختيار من يشاء أن يوليه السلطة.

ويستتبع هذا التصور ثلاثة أمور هامة:

أولاً: أن حق الأغلبية The right fo majority سوف يمثل القاعدة

---

(١) Alburey castell. D. M. B' **An Introduction to Modern philosophy** N. y, 1983, 4 p 310.

(٢) عبد الرحمن خليفة: مقالات سياسية، حـ ١، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٥ ص ٢٠٥.

الأساسية في المجتمع ويكون مصدر السلطة تشريعيـة أو تنفيذيـة، فيصبح من الضـروري أن تخضع إرادة الأقليـة لإرادة الأغلبية، أو الإرادة العـامة General will.

ثـانياً: تقييـد سلطة الملك بقيدين همـا ضرورة تنفيـذ نصوص القـانـون المراعي فيها الحقـوق الطبيعيـة، والإلتزام بـالعقد الإجتمـاعي الممثـل للطرف الثاني.

ثالثاً: إن أي إخلال للملك بالمسئولية وتعديه لحدوده المخولة له من جهة الشعب (الـطرف الثاني المـوقع في العقـد) يستوجب عـزله واختيـار من يحـل محله في الحكم[1].

د ـ العقد الإجتماعي بين هوبز، ولوك:

على الرغم من ورود فكرة العقد الإجتماعي عند كل من هوبز ولـوك بيد أنها اختلفت فيما بينهما فقد أقر هوبز بوجود الحق الطبيعي، ونفي فكـرة وجود القانون الطبيعي، ولهذا فقد سادت في تصوره شريعة الغاب في غياب القانون وإقـرار الحق الطبيعي[2] وهكـذا أصبح الإنسـان عنـد هـوبـز حـراً في سلوكـه وتصرفاته، ساعياً لمصلحته مزهواً بقوته، ومتصفاً بالأنانية والعدوانية والـطمع.

أما تصور العقد الإجتماعي عند لوك فقد صاحبته حالة تشابـه بين حالتي الإنسان الطبيعية، والمنظمة لأن الإنسان لا يـوجد في أي تجمـع بشري بـدون القانون والنظام، وعلى ذلك فيجب أن يسود القانون الطبيعي الحـالة الـطبيعية ذلك القانون الذي ينبغي على كل فرد أن يدين له[3].

---

(١) Maurice cranston, **Locke on politics. p. 54 second tretise oneivil gouvernement,**

(٢) Pokin, h Richard, avrum stroll' **philosophy made simple.** U. s. A. N. Y. 1965 p. 54.

(٣) Ibid, p. 57.

هـ ـ الحكومة وفصل السلطات:

بعد أن ضمن لوك بموجب العقد الإجتماعي حماية الأغلبية الممثلة في الشعب، ورفض مبدأ السيادة المطلقة للحاكم التي كانت شائعة في العصر الوسيط، كما رفض أن يكون للملوك أي حق مقدس يبررون به حكمهم وإستبدادهم المطلق للشعب، دون أن يكون له أي حق في إختيار من يتولى حكمه، وبالتالي يسلب حقه في المعارضة أو الثورة على من يتولى شئونه. يبدأ لوك في وضع الأسس لقيام مجتمع مدنى يحفظ للأغلبية حقوقها. ويرى أنه لكي يقوم مجتمع سياسي مدنى يشعر أفراده بالأمن والاستقرار وصيانة حقوقهم الطبيعية في الحياة والحرية والملكية يجب أن تتم الخطوات التالية:

أولاً: لما كان قانون الطبيعة هو السند الفوى الذي يحمي حقوق الأغلبية، فيجب إيجاد تفسير لهذا القانون [1].

ثانياً: أنه لن يتم تحديد وتفسير لهذا القانون الطبيعي، كما لن تتم فعاليته بدون إيجاد سلطة تقوم بتطبيقه، وهذا يستلزم إيجاد سلطة Power تطبق هذا القانون Law مع أفراد الشعب بدون تفرقه بينهم.

ثالثاً: إن هذه لن تقوم بكامل وظيفتها في تطبيق القانون ما لم تسندها قوة يكون لها مهمتين هما: تنفيذ أحكام القانون الطبيعي، وحماية المجتمع من الخطر الخارجي.

بعد أن يعرض لوك لشكل الحكومة Gouvernment [2] المدينة يقوم بتقسيم السلطات Powers إلى ثلاثة أنواع هي:

---

(١) **An Essay. civil gouvernement, (social and political philosophy, john** Somerveille p. 191 - 193.

(٢) تكرر لفظ الحكومة في المقالة الثانية للوك ـ كما تكرر لفظ كومنولث Commonwealth واللفظ الأخير يعني في السياسة الإنجليزية حكومات يربطها الصالح العام أو رابطة أمم تحت العلم البريطاني ـ أو حكومة المملكة الحرة.

أولاً ـ السلطة التشريعية : Legislative

وتمنح لممثلي الشعب الذين يحصلون على هذا الحق بطريقي الانتخاب أو الوراثة.

ثانياً ـ السلطة التنفيذية : Excutive

ويتحدد عملها في تنفيذ القوانين التي يضعها الشعب عن طريق سلطته التشريعية وتتضمن القوانين الإدارية والقضائية.

ثالثاً ـ السلطة الفيدرالية : Federative

وتعمل على تكملة السلطة التشريعية من مندوبين عن المدن[1] « المقاطعات الإنجليزية من الفرسان ورجال الدين ويتم تعيينهم عن طريق الملك وهم يمثلون الآن أفراد مجلس اللوردات».

ويعلى لوك من قيمة السلطة التشريعية فوق جميع السلطات[2] لكنه لا يمنحها قوة مطلقة لأنها مقيدة بالحفاظ على الحقوق الطبيعية للشعب وبنصوص العقد الإجتماعي.

و ـ المجتمع المدنى بين القانون، والسلطة :

بعد أن قدم لوك لتصوره عن المجتمع المدنى والعقد الإجتماعي الذي يهدف إلى الحفاظ على حقوق الأفراد في الحياة والحرية والملكية نجده يذكر فكرة القانون Law باعتبار أن صياغته والإلتزام بتطبيقه مما يحفظ ملكية قوانين الطبيعة، ويؤكد حق الحياة والعدالة والمساواة والحرية وحفظ ملكية المواطنين، يذكر لوك في المقالة الثانية من الحكومة المدينة إن القانون قد

---

(١) An Essay, **Civil gouvernement** p. 185.

(٢) Ibid.

وضع لمصلحة المجتمع[1] ولتحقيق القانون الطبيعي فيجب على السلطات أن تعمل وفقاً له في حفظ وحماية حقوق الأفراد، ولكي يتم للوك هذا التصور كاملاً كان عليه أن يقوم بفصل السلطات، أي فصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية بما يعني أن لكل واحد منها إختصاصها المحدد التي تعمل في حدوده، بحيث يضمن لوك سلامة تطبيق القانون، وإرساء دعائم العدل والمساواة ثم يفرد في مقالة المبررات التي جعلته يقوم بفصل السلطات وهي :

أولاً: إن وضع القوانين أو صياغتها يتم في وقت قصير، في حين يظل تطبيقها وتأثيرها مستمراً ومعمولاً به زمناً طويلاً مما يستوجب وجود مجموعة من الأفراد تكون مهمتها متابعة تنفيذ القوانين والمحافظة على إستمرار فعاليتها، ولما كان هناك إختلاف بين في زمن وضع القانون، وزمن تطبيقه إستلزم ذلك، الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية.

ثانياً: إنه من غير المعقول أن يقوم من يضع القانون بتنفيذ بنوده فالأحرى بمن يضع القانون إستثناء نفسه من قيد تطبيقه مما سوف يترتب عليه التلاعب بمبادئه، ووصفها بحيث تصلح لأغراضه في المقام الأول، أو تتوافق مع ميوله بحيث لا يجد عناءاً في تطبيقه أسوة بغيره من أفراد الشعب، وفي هذه الحالة يصبح من يضع القانون أول المستفيدين بتطبيقه بحيث ينال من الحقوق والخيرات ما لا يناله غيره، فلا يتحقق للمجتمع المدني غايته في الحرية والعدالة والحفاظ على الممتلكات، لذلك رأى لوك ضرورة فصل سلطتي التشريع والتنفيذ.

ولا يعني الفصل بين السلطات عند لوك أن يكون للسلطة التنفيذية سلطان مطلق، لأنها تخضع للقانون كما تخضع له السلطتان التشريعية والفيدرالية، وكما يرفض أن تكون للسلطة التنفيذية سلطة مطلقة فإنه يمنح

---

(١) Two treatise on civil gouvernement.

(٢) Ibid.

الثقة للسلطة التشريعية بالنظر إلى أهميتها وإستمدادها لبقائها من ثقة المواطنين، ولذافان للشعب الحق في الثورة عليها أو تغييرها في حالة عدم إلتزامها بمسئولياتها وتخليها عن العمل لمصلحة الأفراد. وهنا يلوح لوك بالثورة أوبحق الثورة للشعب إذا حدث مساس بمصالحه، أو إهدار لحقوقه المنصوص عليها في القانون الطبيعي والعقد الإجتماعي. فالشعب مطلق الحرية في الثورة ضد السلطة أو الحكومة وتغييرها إذا أخلت بمسئولياتها في تطبيق قانون الطبيعة وأساءت إلى الشعب.

تعليق وتقييم:

من خلال هذا العرض الموجز لفلسفة لوك السياسية يتضح أنه كان من أوائل الفلاسفة الذين نادوا بمبادىء المساواة والحرية ففي مجال المساواة أنكر أن يكون للملوك أي حق مقدس موروث في دمائهم يحكمون بمقتضاه الشعب حكماً إستبدادياً، وبذلك أكد مبدأ المساواة بين جميع الطبقات الأسياد والعبيد، والملوك والرعية، فالجميع يملكون نفس الحقوق التي وهبتها الطبيعة لهم في الحياة والحرية والملكية وبقدر تأكيد لوك على مبدأ المساواة بين الجميع بقدر مناداته بحرية الإنسان الذي تصوره يولد حراً، غير أنه يصبح مكبلاً بالقيود في كل مكان وزمان ـ فالحرية سمة من السمات التي يتميز بها الوجود الإنساني، والدليل على أنها حق طبيعي للإنسان في الحالة الطبيعية والمدنية ـ فالحرية حالة طبيعية تميز الإنسان بصفة عامة، ولذلك يعد لوك من بين المفكرين الأحرار، بل من مؤسسي مذهب الأحرار في العصر الحديث[١] وتشهد بذلك إسهاماته الكبيرة في مجالات الحرية الفردية، والمساواة مثل مذهبه في الحقوق الطبيعية، وفكرته عن العقد الإجتماعي الذي كفل به حقوق الحياة والحرية والملكية، وأعلى من كلمة الشعب وإعطاء الحق الأول في إختيار من يحكمه، وفي الثورة عليه إذا لزم الأمر[٢]. كما كان مبدأ الفصل بين

---

(١) زكريا إبراهيم ـ مشكلة الحرية ـ مشكلات فلسفية ـ مكتبة مصر الفجالة ص ٢٥٢.

(٢) Ernest Barker' **Social contract locke hume Rousseau** London. N. Y. è! 1976 P 45.

السلطات من بين الأفكار التي عمقت من مفهوم النظرية السياسية عند لوك، وأكدت حقوق الأفراد، ودعمت المساواة كما وضعت القوانين لمصلحتهم، وأمتد أثر مبدأ فصل السلطات عند فلاسفة السياسة فنجده واضحاً عند مونتسكيو[1] (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) Montesquiu في كتابة «روح القوانين Esprit des loi الذي نادى فيه بضرورة فصل السلطات الثلاثة التشريعية والتنفيذية والقضائية لترسيخ سيادة الشعب، وتحقيق أهدافه ورفض التسلط والطغيان.

---

(١) مونتسكيو: (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) مفكر سياسي فرنسي ـ نادى بفصل السلطات ـ دعا إلى تدعيم الحريات، وقال بوجود قوانين طبيعية تحكم سير المجتمعات.

٢ ـ «رسائل في التسامح» وفصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية :

بينا في الجزء السابق كيف مضى لوك إلى تأكيد مبادىء المساواة وحق الحرية بما عبر عنه في مقالتيه عن الحكومة المدنية، وفي رسائل في التسامح Lettres concerning toleration يدافع لوك عن حرية الأفراد الشخصية في العبادة.

وقبل أن نبدأ في عرض أهم أفكار هذه الرسائل نشير إلى ظروف وتاريخ كتابتها وقد بدأ لوك كتابة هذه الرسائل في عام ١٦٨٥ ـ ١٦٨٦ فقد أرسل خطاباً في موضوع التسامح إلى فيليب فان ليمورخ Philip Van Limdorch ونشر باللغة اللاتينية في عام ١٦٨٩ بعنوان Epistola de tolerentia ثم ترجمه وليم بوبل Popple wiliam[1] بعد ذلك إلى الإنجليزية تحت عنوان «أول خطاب في التسامح» «First letter concerning toleration» وذلك في عام ١٦٩٠ إلا أن جوناس بروست Jonas Proast وقد وجه نقداً لاذعاً لرسالة لوك تحت عنوان «the argument of the letter concerning toleration briefly considered and answerd d» .

تأدى هذا الهجوم بلوك إلى الرد في السنة التالية وذلك بنشر رسالته الثانية في التسامح في عام ١٦٩١.. ثم ظهرت الرسالة الثالثة بعد ذلك عام ١٦٩٢ مزيده ومؤثرة، ولما عاد بروسك إلى هجومه مرة ثانية بعد حوالي إثني عشر عاماً كتب لوك رسالته الرابعة غير أن الحظ لم يمهله فمات قبل أن تنشر.

أ ـ موضوع رسائل في التسامح :

يعالج لوك في هذا المؤلف فكرة الحرية الإنسانية في أبعد معانيها،

---

(١) Maurice cranston. **Locke on politics, religion and education, N. two letter concerning toleration** P 104.

وذلـك بـالتـأكيـد على ضـرورة الفصـل بين السلطة الـدينيـة أو الكنيسـة Church والسلطة المـدنيـة Civil government . حيث تمـارس كـل سلطة اختصاصاً معيناً لا دخل للأخرى به، يقول لوك في مهام السلطة المدنية: «إنـه لمـا كان من واجب الحـاكم المدني Civil magistrate تـنظيم شؤون الناس في الحرية والملكية والحياة (في الصحة والأرض والمال والمسكن ووسائل الترفيه وما شابه ذلك) فهذه أمور تختص بها سلطة الدولة والقوانين ولا دخل للدين أو الإيمان فيها»[1].

يشير لوك في هذا النص إلى أن اختصاص السلطة المـدنية ينحصـر في كل ما يتعلق بالمصالح المدنية، والأمور المتعلقـة بالحيـاة الشخصية، ومن ثم فلا محل لتـدخل السلطة الـدينية في شئـونها، لـذلك فـإنه من الضـروري أن تنفصـل القوانين التي تنـظم مصالـح الناس عن أي تـأثير ديني عليهـا، فتـظل القوانين المدنية في معزل عن تسلط الدين ويقصد لوك بذلك رفض أي تدخل أو تأثير للعقيـدة المسيحية Christianity على القـوانين المدنيـة، لأنه من الضـروري أن تظل قـوانين الـدولـة في استقـلال كـامـل عن الإيمـان الـديني FAITH، ولذلك فليس هناك وجود لدولة مسيحيـة لأن تشريـع الدولـة مستقل عن الشريعة المسيحية غير مقيد بتعاليمها[2].

والدولة الحقيقيـة عند لـوك هي التي تلتزم بكفالة كافـة الحقوق لجميـع أفرادها بما في ذلك حرية العقيدة التي يمارسها الأفراد بأوسع معـانيها، لـذلك فمن واجبات الحكومة أيضاً أن تجيز كل أنواع العبادة Worship الخـارجية، ولا تتـدخل في تـوقيع الجـزاءات على الأفراد، والـذين يقترفـون الآثام إلا إذا أضرت بمصالح وحقوق الآخرين.

ويعـرض لـوك في الـرسـالـة الأولى أسبـاب دعـوتـه لفكـرة التسـامـح

---

(١) F. Letter Concerning Toleration, John Locke, Maurice cranston, p..

(٢) Letter, Maurice cranston John Locke, on politics religion and education, p. 124.

Toleration في التالي :

الأول: أنه لا يجب على الكنيسة أن تضطهد أي إنسان بسبب عقيدته[1]، فالحرية مكفولة للجميع في مجال الاعتقاد، وعلى الإنسان أن يؤمن بالطريقة التي يرغب فيها، وبكل ما يملك من حرية، وما يجب على الكنيسة ينسحب على الدولة [2] التي يجب عليها ألا تجبر أفرادها على الدخول في مذهب معين، أو حزب معين، بل تكفل لهم حرية الاختيار التي هي ألزم لضمان أمنهم وسعادتهم داخل المجتمع المدني، كما يجب عليها أيضاً ألا تمارس الإضطهاد بين الأفراد أو التعصيب Pre Judice لجماعة دون أخرى.

فالدولة والكنيسة يجب أن يعملا من أجل سعادة المواطنين في المجتمع وذلك بنشر التسامح والمحبة لأنهما قوتان مستقلتان تمثل الدولة ترابطاً سياسياً خرافياً في حين تمثل الكنيسة ترابطاً دينياً حراً يعمل في ظل الدولة.

الثاني: أما السبب الثاني فيعني به لوك أخطاء التأمل، فالإنسان يكون عرضة للخطأ حين يفكر نظرياً أو يتأمل أفكاره، وما يستتبع ذلك من غموض المعرفة الروحية، لذلك فإنه يتعذر مهاجمة من يخالفوننا في الاعتقاد لعدم وضوح المعرفة بالبرهان، ومن ثم يجب أن يسود التسامح بين الأفراد.

وعلى الرغم من اتقان لوك في عرضه لأسباب التسامح، وتأكيده على الحرية الشخصية، وتمييزه لسلطة الحكومة عن السلطة الدينية، بل وفصلهما إلا إننا نجده يخل بمبدأ التسامح العام حين يستثني منه عدداً من الفئات مثل الملحدين أو غير المؤمنين[3] Alheists، والأشخاص المؤمنين الذين يدينون

---

(1) **Letter concerning toleration.** 103 - 109.

(2) Ibid.

(3) **Letter Concerning Toleration.** P. 139.

بالولاء لسلطات خارجية، وكذلك الأفراد الذين يطلبون التسـامح من الآخـرين وهم في نفس الوقت لا يطبقـون هذا المبـدأ على أفعالهم فـلا يتسامحـون مع معارضيهم[1].

(١) **Letter Concerning Toleration,** P. 140.

الفصل السادس

الفلسفة الأخلاقيّة

تمهيد

أسباب السعادة

أولاً: الصحة

ثانياً: السمعة الطيبة

ثالثاً: المعرفة

رابعاً: فعل الخير

خامساً: الأمل في السعادة الأبدية واللا معفو له

تمهيد:

اتسمت الفلسفـة الأخلاقيـة عند لـوك بالنـزعة العمليـة التجريبيـة، تلك النزعة التي انسحبت على سائر أجزاء فلسفته كالمعرفة والسياسة.

كان لوك قد شرع حقيقة في تأليف كتـاب في الفلسفة الأخـلاقية Moral philosophyغير أنه لم ينتهي منه، بل ربما لم يبدأ أصلاً في كتابته[1] لكنه كان مهتماً بكتابة مذكرات خاصة في الأخلاق منذ عام ١٦٦٨ وكـان يبلغ من العمر السادسة والثلاثين وظهرت هذه الرسـالة القصيـرة متضمنة لآرائـه الرئيسيـة في مسـألـة الفضيلة والسعـادة، وقـد حفـظت هـذه الـرسـالـة في مكتبـة بـودليـان Bodleian ثم طبعت لأول مـرة بعد ذلـك في أكسفورد Oxford ، وفي عـام ١٦٥٧ ظهرت نفس الرسالة في طبعتي لنـدن ونيويـورك New York Macmillan London congmans[2].

عــرض لـوك لمؤلفــه «رســالــة مختصــرة عن السعــادة» A Note on happinessمتضمنـة لخلاصـة أفكاره العمليـة عن الأخـلاق فيـذكـر في بـدايـة الرسالـة أن تحقيق السعادة هي غـاية كـل إنسان من حيـاته، ولا يتم ذلـك إلا بإتباع الأسلوب الأمثل للحياة والسير في وفاق مع القيم والمبادىء الإنسانية.

---

(١) Maurice cranston **A Note on Happiness** p. 195.

(٢) Ibid.

١ ـ أسباب السعادة:

يعرض لوك للأسباب الخمسة التي تؤدي إلى سعادة الفرد الحقيقية وهي أسباب تتوقف على سلوك الإنسان وشخصيته، وعلى مقدار ما يفعله من سلوك من حيث أنه قد وهب من الملكات والقدرات ما يمكنه من تحقيق البهجة والرضا في حياته العملية[١].

ويعرض لوك في رسالة عن السعادة للأسباب الخمسة التي تؤدي إلى تحقيق السعادة وهي:

أولاً ـ الصحة Health:

إن المحافظة على الصحة الشخصية هدف يسعى إليه كل إنسان، فالصحة الجسمية هي أساس الصحة النفسية[٢] التي تبدو واضحة فيما يبدو على الفرد من بهجة وما يشعر به من سعادة.

ثانياً ـ السمعة الطيبة Reputation:

تعد سمعة الإنسان الحسنة، ومقدار ما يتمتع به من قبول وحب اجتماعي من أسباب سعادته[٣].

ثالثاً ـ المعرفة Knowledge:

يربط لوك بين الحصول على المعرفة والإحساس بالسعادة فليس بمستغرب على فيلسوف العقل والتجربة أن يتصور أن من بين أسباب سعادة المرء هو حصوله على المعرفة لأن أقل قدر من المعرفة يحصل عليه الإنسان قد يجعله سعيداً لذا يجب عليه أن يتزود منها. ولا يقف عند حد[٤].

---

(١) A Note on Happiness p. 145.

(٢) A Notes on Happiness. P. 146.

(٣) Ibid.

(٤) Ibid.

رابعاً ـ فعل الخير Doing good :

يعد فعل الخير من بين الأسباب الرئيسية التي يجد فيها الإنسان سعادته القصوى، والفعل الطيب عمل يجب أن يقوم به الخيرين من الناس فإنه لا يشعر بالسعادة إلا كل من هو خير ويفعل الخير لذاته[1].

ويسهب لوك في تفسير هذا الموقف فيذكر أن أكلة لحوم شهية قد تشبعه، غير أنها قد تؤذي صحته إذا أكل بشراهة، كما أن الرائحة الذكية التي قد يتنسم عبيرها بالأمس قد لا تسعده اليوم، لأن الآثار الوقتية المصاحبة لأي عمل حسي لا تتعدى حدود الزمان والمكان، بحيث لا تترك أي أثر أو معنى مبهج في ذاكرة الإنسان، لكن فعل الخير يدوم طويلاً، يقول لوك «يدوم فعل الخير الذي أقوم به الأمس واليوم، وأيضاً هذا العام، ويظل تأثيره فياضاً مستمراً لسبعة أعوام مقبلة، يغمرني بالسعادة كلما تذكرته»[2].

خامساً ـ الأمل في السعادة الأبدية والمبهمة

the expectation of etern 1 and incomprehensible happiness

يذكر لوك في «رسالة عن السعادة» إلى أن أمل الإنسان في السعادة الأبدية الموجودة في العالم الآخر يعد أحد أسباب شعوره بالسعادة والبهجة الدائمة في حياته[3]. ويكفي أن يعمل الإنسان بمقتضى مبادئه وتعاليم دينه حتى يشعر بالسعادة لتوقعه السعادة الأبدية التي سوف ينالها في العالم الآخر.

قدم لوك لهذه الأسباب الخمسة التي تؤدي إلى سعادة الأفراد ـ ونحن نلمح من خلالها اتجاه عملي صرف، وإيمان خالص بأن نجاح الإنسان

---

(١) Maurice cranston, **Locke on politics, religion and education, A Note on Happiness** p. 146.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

وسعادته لا يتحققان إلا بتوجيه الإنسان إلى السلوك الأمثل في المحافظة على صحته والانخراط في الجماعة وتقبلها، وحسن السير والسلوك، وفعل الخير، وإتباع تعاليم الدين وأداء شعائره أملاً في سعادة الآخره.

ويمكننا أن نلحظ على مذهب لوك في الأخلاق ما يأتي : -

أولاً: إن النزعة العملية والتجريبية، كانت هي السمة الغالبة على آراء لوك في موضوع الأخلاق، وليس بمستغرب أن تتسم فلسفة الأخلاق بالنزعة العملية التي انسحبت على نسق لوك الفلسفي برمته.

ثانياً: إن العوامل الخمسة التي تتسبب في سعادة الإنسان التي ذكرها لوك في رسالته تكاد تقترب من دراسات علم النفس الحديث الذي يبحث في الشخصية السوية من خلال إشارته إلى الصحة الجسمية وما يستتبعها من الصحة النفسية، وكذلك أثر الروح الجماعية والانخراط في المجموعة على الحالة النفسية، والأثر النفسي لحسن السمعة في الشعور بالسعادة، وما يستتبع عمل الخير من الشعور بالبهجة الدائمة.

ثالثاً: يرى لوك أن الخضوع لما يمليه العقل من طاعة القانون الإلهي (الذي وضعه الله قبل الإنسان) والامتثال لأوامره التي تتفق مع الطبيعة البشرية يعد من أسباب السعادة الروحية التي توحي للإنسان بنيل السعادة الأبدية في العالم الآخر، وهو يتفق في ذلك مع الدراسات النفسية التي ترى أن الإيمان واليقين يؤديان إلى شعور الإنسان بالبهجة والسعادة والأمن النفسي، كما يتفق فيها مع آراء الفلاسفة العقليين المسيحيين أمثال ديكارت ومالبرانش وبسكال وكذلك ليبنتز، فقد ذكر هؤلاء الفلاسفة في مباحثهم الأخلاقية مسألة تحقيق السعادة والخير الأزلي في عالم الآخرة، وأن على الإنسان أن يحيا على أمل الآخرة أو الأبدية السعيدة Eternite Bien Heureux [1].

---

(١) كان لوك مسيحياً مؤمناً تحدث عن قدرة الله الذي يبصر الناس بواسع علمه فيعاقبهم=

رابعاً: على الرغم من ظهور النزعة العملية في رسالة لوك عن السعادة، إلا أنه يحاول من جهة أخرى إقامة علم نظري للأخلاق يتطابق مع الرياضيات النظرية، وهكذا تتحول الأخلاق من مجال الدراسات العملية إلى مجال الرياضيات البحتة فتصبح المبادىء الأخلاقية موضوعاً للمعرفة البرهانية التي تتميز بالدقة على غرار العلوم الرياضية ولهذا فإن لوك ينظر إلى علم الأخلاق باعتباره علماً ممكناً، وهذا يعني استقلال معرفتنا الأخلاقية عن تجربتنا الواقعية فتصبح المعرفة بالأخلاق كالمعرفة بالرياضيات، حيث أن الأمر يتعلق بالأفكار المجردة دون الرجوع إلى أية وقائع[1].

يتبين لنا مما سبق كيف اتجه لوك اتجاهاً عملياً تجريبياً في بعض أجزاء فلسفته الأخلاقية غير أنه عاد بعد ذلك وأقام للأخلاق علماً نظرياً، وهكذا فلم يستطع الإستغناء عن الجانب النظري في تأسيس الأخلاق، كما فعل ذلك في بناء نظرية المعرفة التي اعتمدت على جانبي الحس والعقل، أو التجربة والحدس.

= ويثيبهم، كما يمنحهم العقل الذي يستطيعون به أن يتعرفوا بالبرهان على حقائق الأخلاق، ويهتدون إلى مبادىء الدين وتعاليمه أيضاً. ويختلف هذا المنهج العقلي الذي يصل إلى حقائق الأمور عن طريق البرهنة عن نظرية ديكارت عن الحقائق الأبدية الموجودة في العقل، والتي هي حقائق الرياضة والأخلاق والدين التي ألهم الله الإنسان إياها عن طريق عقله.

(١) الدكتور على عبد المعطي محمد ـ تيارات فلسفية حديثة ـ دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤ ص ١٤٣.

الفَصْلُ السَّابِعُ

النظريّة التربَويّة

تمهيد

١ ـ آراء لوك في التربية

* تعليق وتقييم

تمهيد

وضع لوك نظرية عملية سديدة في مجال التربية، كان يهدف منها إلى تطوير نظام التعليم باستحداث طرق جديدة ومبتكرة، واهتم في وضعها بالدفاع عن الحرية الشخصية للأفراد، وتحرير الأفكار من التقاليد القديمة - والمطالبة باستقلال التعليم عن سلطة الكنيسة والحكومة. والعمل على نقل الممارسة التعليمية من المدارس والكنائس إلى المنازل، كما وضع بعض المبادىء والنظم التي ينبغي على المدرسين اتباعها مع الدارسين من الأطفال والشباب، بغرض تنمية قدراتهم العقلية والنفسية والجسمية عن طريق توسيع مداركهم، وتشجيع موهبتهم وتعليمهم المهارات والعلوم الحيوية النافعة، كما رأى أن يتم التوجيه والإرشاد بطريقي الفعل الطيب والقدوة الحسنة.

١ - آراء لوك في التربية:

وضع لوك خلاصة آرائه التربوية العملية في عام ١٦٩٣ في كتابه «آراء في التربية» Some Thoughts Concerning Education وهو يمثل مجموعة من الرسائل التي أرسلها أثناء إقامته في هولندا لصديقه كلارك E' Clarke [1] وهي تتضمن خلاصة أفكاره التربوية ومقترحاته في تربية الأطفال والشباب، وتعليمهم وفق طرق ومناهج عملية جديدة تتوافق مع ظروفهم وميولهم حتى يتمكنوا من مواجهة حياتهم عند الكبر رجالا أسوياء على علم وخلق.

---

(١) Aaron. R. John Locke — Second Edition — Oxford Clarendon Press 1955, In Education And Religion — 287.

وسوف نعرض في عجالة لمجمل آرائه في التربية:

١ ـ أراد لوك بمقترحاته في التربية أن يغير من نظام التعليم الذي كان متعباً في المدارس في عصره، فرأى أن تعليم الطفل المواد النظرية كالبلاغة[١] والمنطق وكذلك اللغات كاليونانية والعربية والعبرية لا جدوى منها، ويجب إستبدالها بدراسة ذات فائدة وقيمة، فيقول إن تعليم اللغتين اللاتينية واليونانية لا يستفيد منه إلا فئة معينة من إبناء الشعب الإنجليزي، وهو يقصد بهم (السادة Gentlemen) بينما تصبح عديمة الجدوى بالنسبة للغالبية العظمى من أبناء الشعب ممن يشتغلون بالتجارة أو الزراعة أو أية حرفة لا يمثل تعلم اللغات أهمية بالنسبة لها، ومن ثمة تصبح دراسة اللغة عبئاً على كاهل التلميذ في المدرسة باعتبارها دراسة نظرية لا يستفيد منها في الحياة العلمية إلا القلة من السادة الإنجليز.

٢ ـ أراد لوك أن يغير من الدراسات القديمة الرتيبة التي كانت تفرض على التلاميذ مناهج تدريس الشعر والنثر، واقتراح استبدال هذه المواد الدراسية بعلوم ومواد أخرى أكثر عملية كالتاريخ والجغرافيا والفلك والطب والتشريح[٢] وهي علوم تساعد التلميذ على النجاح في الحياة العملية، وتطلعه على أحدث منجزات العصر في العلوم الطبيعية.

٣ ـ اهتم لوك بالدراسة العملية للتلميذ فناشد المعلمين الاهتمام بعمل الرحلات المستمرة إلى البلاد المجاورة تنمية لمعلومات التلميذ، وتوسيعاً لمجال خبراته، وردا على استفساراته عما يشاهد ويسمع[٣].

وفضلا عن تزويد التلميذ بالمواد العملية فقد رأى لوك أن يبدأ التعليم بتعليم الشباب الأبحاث النظرية كالحساب والجبر والفلك، وبعد ذلك يتعلم

---

(١) كانت البلاغة Rhetoric مع الشعر والنثر من بين المواد الدراسية الهامة التي كانت تدرس في المدارس في هذا العصر.

(٢) Aaron. P. 287.

(٣) Ibid. P. 290.

الشـاب قليلا من القـانون المـدنى والأخـلاق، ثم تكتمـل دراستـه بعـد ذلـك بمقدمه في الفلسفة الطبيعية للفيزيقـا والميتافيـزيقا، ولا يعني ذلـك أن الشاب سوف يكون متخصصاً في جميع هذه المجالات، بـل يعني أنه سـوف يحصل معرفة عامة وعميقة عنها لقضاء حاجاته الشخصية[١].

وقد شجع لوك هوايـة السفر والتـرحال، فـذكر أن السن المثـالية للقيـام بـالأسفار تبـدأ من السادسـة عشـر حتى سن الـواحـدة والعشـرين. ولـلأسفـار فـائدتـان: الأولى هي تعلم اللغة الأجنبيـة، أما الثـانية فهى الـدرايـة بخبـرات الشعوب، والوقوف على فهم الأحوال السياسية والاجتمـاعية التي يعيشـون في ظلها، كما ينصـح بأن يبـدأ السفر لتعلم اللغـة في سن متأخـرة على أن يكون السفر في سن مبكرة لتحصيل المعارف والخبرات[٢].

واقترح لوك أن تخصص فترات الراحـة Recreation بين الدروس الجـادة والهـامة في تعلم الفنـون Arts والحرف Crafts مثـل الشعـر والمـوسيقى ممـا يحقق للشبـاب المتعة الـروحيـة والفـائـدة الشخصيـة، كمـا تـرهف شعـورهم وأحاسيسهم، وتعمق قيم المشاعر النبيلة[٣].

ولم تقتصر توجيهات لوك وتوصياته في مجال التربية على تنمية الجوانب العلمية والعملية فحسب، بل تعدت ذلـك إلى الجوانب الأخـلاقية فنـراه يؤكد على أهمية تنمية الفضائل الأخلاقية والإجتمـاعية في نفس الـطفل منـذ تربيتـه الأولى، فالتربية السليمة قـوامها العلم الجـاد، والخلق القويم فـالرجـل العالم يجب أن يكون على خلق متسام، وأن يتحلى بالفضائل الحميدة مثل الشجاعة والمروءة والشرف والتضحية وإنكار الذات، كما ينبغي أن يكون هادىء الـطبع مثابراً، حلو المعشر، حسن العادة.

---

(١) Aaron P. 290 — 291.

(٢) Aaron. P. 291.

(٣) Ibid.

ويرى لوك أن صفات الصبر والمرونة لن تتأتى للفرد دون مزاولة التمرينات الرياضية، فهي التي تمثل التربية بالنسبة للجسم، فالعقل السليم في الجسم السليم، فالحركات الجسمية والدراسات العملية، والتمرينات الجمعية تساعد الطفل منذ الصغر على الصبر وتحمل المشاق، كما تغرس فيه روح المسئولية والإيثار والمرونة والحيوية[1].

وتخطت نظرية لوك في التربية مجالي العلم والتربية والرياضية إلى مجال علم النفس إذ يوجه نداءا للمعلمين بعدم استخدام العصا في أثناء مزاولة مهمتهم حيث أن العقاب المستمر والقسوة الزائدة من عوامل إعاقة التربية والتحصيل الجيد، وكان يرى ضرورة الإبتعاد عن العقاب الصارم[2].

ويرى أن أفضل الطرق لتربية الأطفال طريقة إتباع مبدأ «القدوة الحسنة» بدلا من ترديد النصائح والقواعد الأخلاقية على مسامعهم[3].

مما سبق يتبين لنا كيف قدم لوك نظرية لها أهميتها في مجال التربية أفاد منها الباحثون في عصره مثل جان جاك روسو Rouseau الذي تناول نظرية لوك في التربية وطورها وعدل فيها وأخرجها في مؤلفه الشهير في التربية «إميل» Emile الذي حاز قبول واستحسان المهتمين بالتربية في عصره يقول ريتشارد آرون «لا يوجد كتاب للوك حازت قراءته وأهميته شهرة عريضة أكثر من (آراء في التربية) حتى لقد أصبح لأهميته جزءاً من النظرية التربوية العامة لبلده، ولبلاد كثيرة في العالم الأوربي وقتذاك»[4].

---

(١) Aaron 291

(٢) Ibid.

(٣) The Successful Teacher Does Not Need To Compel And The Use Of Force For Instance In Corporal Punishment Is A Sign Of Failure On The Teacher's Part. A good Teacher Will Teach Much By Example And Py Sujjestion

(٤) Aaron Locke. P. 55

*** تعليق وتقييم:**

بعد عرضنا لنظرية لوك، أو لآرائه في التربية نجد أنفسنا أمام نظرية متكاملة في العلم والعمل، في مناهج العلم ومناهج التربية، في الفن والحرفة، في التربية البدنية الروحية، وفي الأخلاق.

إن آراء لوك في التربية تبرز جانبين هامين في عصره هما الجانب العملي التجريبي الذي ظهر بوضوح في جميع المجالات وتميز به عصر العلم والإختراع الذي عاش فيه الفيلسوف، والجانب الفردي الذي انصب على الإعلاء من قيمة الذات الإنسانية والتأكيد على حرية الإنسان وكرامته، وإتاحة فرص الحياة الفاضلة أمامه ومعالجة مشكلاته النفسية والإجتماعية باستخدام أحدث ما وصلت إليه أبحاث العلم في جميع المجالات.

لقد كان الإهتمام بالجوانب العملية والعلمية وتعليمها للتلاميذ في المدارس بمثابة إسهاماً من لوك في تطبيق نظرية المنهج العملي مسايرة لروح العصر، وتنمية للعقل العلمي التجريبي.

كما أن توجيه طاقة الإنسان في وقت الفراغ إلى ممارسة الفن مثل الشعر أو الموسيقى إنما يعطى مؤشرا إلى إهتمام العصر بالفنون، وإفساح المجال أمام العاطفة السامية التي يثريها الفن الرفيع.

إن الإهتمام بالجانب الأخلاقي كمبدأ في التربية دليل على أهمية الجانب الأخلاقي والروحي في المجال التربوي.

كما أن محاولة تربية الطفل بدون تخويف أو إرهاب إنما تعد إشارة إلى مدى استفادة لوك من تطبيق مناهج علم النفس الحديث المتعلقة بموضوع الشخصية، فالشخصية السوية في تصوره هي التي تتمكن من تحصيل العلم بدون ضغط أو إرهاب، كما أن اتجاه القدوة والتأسي في مجال التربية أفضل بكثير من إسداء النصح والارشاد النظري للدارسين.

الفَصْلُ الثَامِنُ

الدِّينُ

تمهيد:

١ ـ الله: وجوده وصفاته.

٢ ـ إثبات وجود الله.

٣ ـ صفات الله:

تمهيد

كـانت إهتمامـات لوك بـالمجال الـديني لا تقـل أهميـة عن إهتمـامـاتـه بجوانب فلسفته الأخرى في المعرفة والسياسة والأخلاق والتربية.

وإذا كانت الرؤية العملية والتجـريبية قـد إنسحبت على فلسفته بـرمتها، فـان الدين لم يستثـن من هـذه الرؤيـة كذلـك، فقد ظهـرت أفكاره في كتـابه «معقولية المسيحيـة» وهي تنطوي على النـظر الى الدين من خـلال العقل، أو محاولة النظر الى معطيات الدين والوحي من منظور العقل والمنطق، ومن آرائه في هذا المؤلف انه يجب النظر إلى الدين المسيحي نظرة عقلية، وأن حقـائق الـوحي Revelation يجب أن تختبـر بمحـك عقلي، ذلـك لا يعني الإيمـان المـطلق بمعطيـات العقل وحـده، أو رفض معطيـات الوحي الـديني ومـطالب العقل الإنساني.

ويذكر لوك في معقولية المسيحية إننـا لو استـطعنا أن نفهم أصـل الدين المسيحي خالصاً فسوف نجده لا يتعدى كونـه تبريـراً للايمـان[1] Justification By Faith وسوف لا نجد اعتراضاً كبيراً أو خروجاً على هذه القاعدة العامة التي فسرها الكثيرون عن «الدين المسيحي».

---

(1) Aaron: P 296.

١ ـ الله : وجوده وصفاته :

الله في تصور لوك هـو الجوهـر الإلهي (الجوهـر الروحي الـلامتناهي)، لكن جهـل الإنسان بمـاهيته تجعله يـركب عنه فكـرة من خلال أفكـار الوجـود والمعرفة والقـوة والسعادة والـلانهايـة والخلود، والإنسان يجهـل وجود الله لأن معـرفته غيـر فطريـة، ومن ثم فهي تحتاج لبـرهان عقلي لكن العقـل من جهـة أخرى قاصر عن إدراكها.

ويرى لوك أن معـرفة الله ليست فـطرية لجهـل الناس بمـاهيته، وقصـور العقول عن إدراكها، فضلا عن وجود الملحدين.

٢ ـ إثبات وجود الله :

يحاول لوك إثبات وجود الله بالإستناد إلى ضرورة التسليم بوجـود الأزلي القـديم إستناداً إلى وجـود الحادث المخلوق معلولا لـه، فكل مـوجود حـادث جزئي لا بد لـه من موجـود قديم كلي خلقـه، ويلاحظ أنـه قد بـرهن في هذا الدليل على وجود الله وماهيته في نفس الوقت، كما إستخدم فيه مبدأ العليـة، وكذلك فقد عبر عن فكرة مركبة غير موضوعية.

٣ ـ صفات الله :

يعرض لوك في مؤلفه فكرة وجود الله عرضـاً عقلياً تجـريبياً أو واقعيـاً إذا جاز لنا هذا التعبير، فهو يقول عن الله : «إننا لا نستطيع مجرد الأمل في معرفته كاملا كما هو كائن فعلا، لكننـا نكون صـورة أو فكرة عنـه فحسب، هي فكرة مركبة Complex Idea [1] مثل جميع الأفكار المركبة.

ونحن نتصور في الله جميع صفات الكمال والخيـر، وهي ليست صفات كالتي نتصورها فيما بيننا.

---

(١) Aaorn, P. 301.

الله واحـد لا متناه خـالد محط لكـل سعادة وبهجـة حقيقية، عـالم بكل شيء يكمن فيه الخير الكلي والقدرة الكلية، غيـر أننا لا نملك فكـرة يقينية أو مؤكدة عنه فعندما نقول أن الله خير فاننا نعني بذلك أنـه أعظم خيـر نعرفـه من كل ما حولنا من أنواع الخير، وعندما نقـول أنه حكيم فـاننا نعني بحكمتـه أنها أسمى من أي حكمة عرفناها بيقين[1].

أنه لا يوجد تصور يقيني عن فكرة الله، كما أن فكرتنا المـركبة عنـه تعد بعيـدة عن الـواقـع، إن الله في طبيعتـه الحقيقيـة يجب أن يكـون مختلفـاً عن أسمى تصـور لنا عنـه. إن ذلك شيء لا يـدعو للعجب حتى إذا ذكـرنا جهلنـا بمعرفة ذواتنا نفسها.

إن الله غير معقول ولا يمكن تصوره عقليا[2]، ولا يمكننا أن نعرف عنه سوى قوة الحضور في حياتنا ذلك الحضور الذي نستمد منه القوة والأمان[3].

وسوف نعرض فيما سيأتي لأهم الأفكار التي تناولها كتاب لوك «معقوليـة المسيحية» محاولين إلقاء الضوء عليهـا وتحليلها من خـلال نسقه الفكـري من ناحية، ومن خلال التيارات الروحية والإجتماعية السائدة في عصـره من ناحيـة أخرى.

---

(١) Aaron, 301.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

الفَصْلُ التَّاسِع

فَلسَفَةُ الدِّين
أو
مَعقُولية المسِيحيّة
رؤيَة تحليلية

* تمهيد:

١ ـ موقف لوك من مسألتي الخطيئة والفداء.

٢ ـ موقف لوك من المعجزات.

٣ ـ القانون الإلهي هو ناموس العقل، أو الناموس الطبيعي.

٤ ـ موقف لوك من الدين.

٥ ـ لوك بين الفلسفة والدين.

٦ ـ الدين منبع الأخلاق.

٧ ـ المعرفة والنور الفطري.

٨ ـ الفضيلة بين الفلسفة، والدين الخالد.

٩ ـ الدين والحياة الخيره.

١٠ ـ الدليل على الدين.

* فلسفة الدين بين مذهب لوك العملي، ومذاهب الفلاسفة العقليين.

معقولية المسيحية
كما وردت بالكتب المقدسة

The Reasonableness Cf Christianity

As Delivered In The Scriptures.

رؤية تحليلية

تمهيد :

لقد استمرت النزعة اللاهوتية في سيطرتها على الأفق العقلي حتى بعد عصر النهضة الأوربية، وإلى القرن السابع عشر لهذا نجد أن المشكلة الأساسية التي واجهت فلاسفة هذا العصر إبتداءاً من ديكارت، ومروراً بمالبرانش وبسكال وليبنتز في فرنسا، ولوك في انجلترا كانت هي كيفية تبرير الموقف الديني عقلياً، أو بمعنى آخر محاولة التوفيق بين النقل والعقل، بين الدين والفلسفة.

والسبب في تأزم هذه المشكلة هو أن نفس الموضوعات التي يعالجها الدين مثل الوجود والذات الإلهية، والخلق، وكذلك فعل الإيجاد ومشكلة الإنسان، ومعرفته كانت هي نفس الموضوعات التي عالجتها الفلسفة أيضاً، فليس هناك انفصام كامل بين موضوعات الفلسفة، وموضوعات الدين إلا فيما يختص بأسس العقيدة المسيحية نفسها. وحتى هذه الأسس وأهمها فكرة التثليث كانت تظهر بطريقة رمزية في كتابات بعض الفلاسفة. أما مشكلة الخلاص والنعمة الإلهية. فقد ظهرت بوضوح في كتابات الفلاسفة في هذه الفترة المعاصرة، ولهذا لم يكن غريبا أن يتصدى فيلسوف حسي تجريبي مثل

لوك لكي يعرض أطراف هذه المشكلة، أي الصلة بين العقل والنقل، وأعني بها بين الفلسفة والدين فيحاول أن يبين أصالة الدين في موضوع السلوك الإنساني أي الأخلاق، فكأنه بذلك يريد أن يقول أن للقانون الأخلاقي، وقواعد السلوك الأخلاقي التي تستند إلى هذا القانون العام، ولا سيما فكرة الواجب الأخلاقي والإرادة الحرة في مجال الأخلاق، إنما تستند الى أوامر الكنيسة، وكأنها وضعت تماماً بمعرفة اللاهوت الكنسي.

وهذا الموقف تبشر به البروتستانتية التي كانت وراء مذاهب الأخلاق في انجلترا، كما ظهرت عند كانت في ألمانيا، وكأن ما انطوت عليه هذه المذاهب من أفكار يعد رداً على مواقف أصحاب عصر الإنارة الذي سيأتي فيما بعد في القرن الثامن عشر، وكذلك في كتابات المفكرين الأحرار العلمانيين الذين يرون أن الأخلاق ودستورها إنما ينبعان من صميم فطرة الإنسان عند أصحاب الفطرة، أو من خلال التجارب الأخلاقية المعاشة عند الحسيين. وعلى هذا النحو نرى أن موقف لوك الذي كان يجب ان يستمد أصوله من مواقف هؤلاء التجريبيين الحسيين في مجال الأخلاق نجده يتأثر باللاهوت المسيحي[1] ويرجع مبادىء الأخلاق والقانون الخلقي بصفة خاصة إلى مجال اللاهوت أو الميتافيزيقا التي قد تتعارض مع موقف لوك الفلسفي الحسي.

وسوف نحاول في هذا الفصل أن نعرض لكتاب لوك الرئيسي في الدين. أو في «فلسفة الدين» إن صح هذا التعبير وهو كتاب «معقولية المسيحية كما وردت في الكتب المقدسة» فتقوم بترجمة أهم فقراته الرئيسية محاولين تحليلها، والتعليق عليها في نهاية الترجمة.

---

(١) ليس مستغربا أن يظهر هذا الموقف عند لوك الذي تلقى تعليمه باكسفورد في عام ١٦٥٢ حيث استقى تعاليم الأرثوذكسية الفلسفية العنيفة، الخالية من كل حياة، والتي كانت تسود في عصره، وكان من الطبيعي ان يتأثر بها حتى مع مقته الشديد لها.

أما الهدف من عرض هذا الموضوع فهو الوصـول الى كيفية تصـور لوك لمعقـولية المسيحيـة حيث سيتبين لنا من خـلال مطالعـة نصوص هـذا الكتاب دفاعه عن المسيحيـة؛ وتأكيـده لدور العقـل من جهة أخـرى، ثم تبريـر الدين بالعقل، وهو الهدف الأساسي من كتابته.

وقد حاولنـا خلال التـرجمة تقسيم مـوضوع الكتـاب الكلي إلى عدد من الفقرات، كما اخترنا عناوين مناسبة لها تتفق وما ورد فيها من موضوعات كتبها الفيلسوف بالانجليزية بـأسلوب ممتزج بـالحماس الـديني تارة وبـروح الفلسفة تـارة أخرى، وقـد بدأنـا هذا الفصـل بعرض مقـدمة لـظروف كتابـة الكتـاب، ولتاريخ صدوره، ثم تابعناه بالعناوين التي اقترحناها في المـوضوعـات التي تـم ترجمتها وهي على الوجه التالي:

(١) موقف لوك من مسألتي الخطيئة والفداء.

(٢) موقف لوك من المعجزات.

(٣) القانون الإلهي هو ناموس العقل، أو الناموس الطبيعي.

(٤) موقف لوك من الدين.

(٥) لوك بين الفلسفة والدين.

(٦) الدين منبع الأخلاق.

(٧) المعرفة والنور الفطري.

(٨) الفضيلة بين الفلسفة، والدين الخالد.

(٩) الدين والحياة الخيرة.

(١٠) الدليل على الدين.

مقدمة الكتاب :

وضع لوك كتابه «المعقولية» إثر عودته إلى انجلترا وذلك في عام ١٦٨٩ ، وبعد مرور عدة سنوات اكتسب منها بعض الخبرة بعد استقرار الثورة .

وقد اتفقت آراء لوك المتعلقة بالتسامح الديني Religion Toleration مع آراء بعض الأساقفة، على الرغم من أن هذه الفكرة لم تكن قد ازدهرت بعد باعتبارها الأمل المنتظر في مملكة ويليام وماري الجديدة .

ويعد كتاب «معقولية المسيحية» هو الكتاب الرئيسي للوك الذي عرض فيه وجهة نظره في عقيدته المسيحية، وصلتها بالفلسفة، كما طرح فيه بعض القضايا الرئيسية التي تناولتها المسيحية .

وكان الهدف من نشر هذا الكتاب هو إبراز حقيقة إيمانه المسيحي ومحاولة تفسير العقيدة، مثلما تفسر حقيقة أي علم من العلوم مثل علم الهندسة، كما أراد في الوقت ذاته البرهنة على أن عقيدته لا تمثل قانونا أو عقيدة متعصبة أو عاطفية .

١ ـ موقف لوك من مسألتي الخطيئة والفداء :

«تتضح العقيدة المسيحية بشكل كبير عند دراسة العهد الجديد الذي يبرز فيه مذهب الفداء، ذلك المذهب الذي يقوم عليه الانجيل، وهو الذي يفترض سقوط آدم، إلى أن جاء السيد المسيح عليه السلام، واستطاع أن يفتدى الإنسان.

ولقد اعتقد البعض أنه قد قدر لذرية آدم أن ترسخ تحت وطأة المصير المعذب للخطيئة الأصلية، وأنها قد كتب عليها الهلاك «الفناء» من خلال عقاب مطلق لا متناهي، ذلك على الرغم من أن الملايين لا تعلم عنها شيئا، كما أن البعض الآخر لا يعتقد في وجود فداء لهذه الخطيئة لأنها تحط (تنقص) من قدر الإنسان ومن ثم فقد أرسل الرب يسوع المسيح لاستعادة مكانة الإنسان أمام الرب، ولكي يوعظ ويبشر بدين طبيعي خالص، . . . . على ما تبينه كتب العهد الجديد.

وخلاصة هذه المسألة هو تفويض الأمر برمته إلى عدالة السماء رأي الفريقين يبين لنا أنهما قد تعديا في موقفيهما كلمات الرب المكتوبة، وأن هذه الكلمات ليست سوى مجموعة من الكتابات التي صنعها الرب لمساعدة الغالبية العظمى من الأميين من بني الإنسان لكي يوجههم إلى طريق الخلاص بطريقة ضرورية سهلة الفهم من خلال المعنى البسيط المباشر للكلمات والجمل المتبادلة بين أفواه المتحدثين الذين يستخدمونها عن طريق اللغة الخاصة بالعصر والبلد الذين يعيشون فيه. . إن هذه هي الأمور الهامة التي نقوم عليها الأنظمة الإلهية طبقا لمثل هذه الأفكار.

إنني لم أبحث كثيراً في مسألة الخطيئة أو العقاب الذي فرض على ذرية آدم، لأنني أعتقد أنها ترجع إلى عدالة الرب التي سبق أن ذكرتها. ومع ذلك فيبدو أن ثمة أسلوب غريب يبدو في فهم مثل هذا القانون الغريب، والذي

ينطوي على أبسط الكلمات المحددة التي تقول «عن طريق الموت» فماذا يقصد بها؟ هل يقصد بها حياة الخلود في الشقاء؟ إن هذا ما يدفع بالبعض إلى الإيمان بضرورة وجود الخطيئة التي أغضبت الرب عندما سلك البشر ضد قوانينه ومن ثم فقد فرض الموت على البعض دون الآخر، يقول الرب: «إن من يأكل من هذه الثمار المحرمة فسوف يحكم عليه بالموت، إن هذا يعني أن من يأكل وذريته مما حرمته، فسوف أصب عليه غضبي وسخطي ـ هكذا يقول الرب ـ إن كلمة الموت بهذا المعنى وكما تفهم إنما تعني فقدان كافة أعمال الحياة وإدراكها، وقد فرض هذا الضرب من الموت على آدم وذريته لعدم طاعتهما نواميس الرب داخل الجنة، ولهذا جاء يسوع المسيح باعتباره الفداء لخطايانا، لأنه عندما فرض الموت على آدم لم يكن يعني به فساد طبيعة الإنسان، أو ذريته لعدم طاعته نواميس الرب داخل الجنة لأن المسيح قد جاء باعتباره فداءا لخطايانا وأن هذا التفسير غريب، ولهذا فإنه ينبغي على كتب العهد الجديد مراعاة هذه الملاحظة التي يفرض فيها الفساد على الجميع نتيجة خطيئته (إثم) آدم.

لكن الأمر غير ذلك، فإن من يرتكب معصية أو خطيئة إنما يحاسب عليها بنفسه وليس الآخرين، فهل من الممكن أن تعاقب جميع ذرية آدم بسبب الخطيئة؟ وهل سوف يعاقب البريء من أجل المذنب؟ إن هذا يعني أن العقاب قد قدر على ذرية آدم، وأنهم لن يكونوا خالدين، فإن حياة الخلود المؤقتة لهي هبة من هبات الرب لعبادة الذين لا يستطيعون المطالبة بها باعتبارها حقا لهم، ومن جهة أخرى فان الرب لن يخسر شيئاً إذا استعاذ هبته التي وهبها لهم. ولكن هل يعقل أن يأخذ الرب ما يعتبره حقاً للناس، وهل يمكن له أن يشقى أحداً منهم بدون أن يكون مستحقاً لهذا الشقاء.

إن هذه هي رحمته التي عرف بها، ويتصف بها كذلك. إننا هنا لا نريد الخلط بين الصواب والشر، أي بين الرب والشيطان، وأنني أقول، ان الحياة

المؤقتة التعسة التي يعيشها الإنسان بعملها الشاق وبؤسها البين لهي علامة دالة، وذات قيمة على وجودنا ولهذا يقال: «يموت الجميع في آدم أي من أجل خطيئته».

إنني أعتقد أن البشر لا يعاقبون إلا بقدر أعمالهم وأفعالهم، وأن الله سوف يجازي كل أمرى على عمله، كما يحاسب كل روح بحسب عملها.

ولهذا فيجب علينا جميعاً أن نقف أمام عرش حكم المسيح، وليحاسب كل منا على أفعاله بجسده سواءا كانت خيرة أو شريرة. لأنه من الضروري أن نقف أمام كرسي المسيح لكي ينال كل واحد منا ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً، وأن يسوع المسيح نفسه يعلم تماماً من هم الذين سيعاقبهم، كما شرح ذلك في موضعين مختلفين وبين ذلك بقوله: «إن الحكم يصدر على الأعمال المتعلقة باهمال تحقيق ما جاء بناموس الرب، وخاصة أعمال الخير يقول السيد يسوع المسيح فحينئذ أصرخ لهم أني لم أعرفكم قط اذهبوا عني يا فاعلي الاثم» «إنجيل متى، الاصحاح السابع، الآية ٢٣»، ثم يقول في إنجيل يوحنا الاصحاح الخامس الآية ٢٩ «فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة». ويقول يسوع مخلصنا إلى اليهود:

«سوف يخرج الجميع من القبور سواءا من فعلوا الخير أو الشر يوم القيامة، فمن كانت أعماله الخير قام الحياة، ومن كانت أعماله شريرة قام قيامة العذاب، وهنا فلا توجد خطيئة تسمى خطيئة آدم لكي يحاسب الإنسان عليها، إن الآية تقول: ـ «إن ابن الإنسان سوف يأتى في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازى كل واحد حسب عمله «إنجيل متى، الاصحاح السادس عشر، الآية ٢٧».

وهكذا فقد كان خروج آدم من الجنة من أسباب توالد ذريته خارجها، وكذلك الموت عليها إلى الابد، بيد أن السيد المسيح قد استطاع من

خلال هذا الموت أن يستعيد الحياة للبشرية مرة أخرى، لأنه كما تقول الآية: - «لأنه كما في آدم يموت الجميع؛ هكذا في المسيح يحيا الجميع» «رسالة بولس الرسول الأول إلى أهل كورنثوس، الاصحاح الخامس عشر الآية ٢٢».. ويضيف يسوع مخلصنا قائلا: «فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي، والأبرار إلى حياة أبدية» «إنجيل متى، الاصحاح ٢٥، الآية ٤٦، كما قال أيضا: - و« إذا ناموسي قام يجربه قائلا يا معلم، وإذا أعمل لأرث الحياة الأبدية» «إنجيل لوقا، الاصحاح، الآية ٢٥، وهذا يشير إلى ما يتطلبه ناموس الرب، وكيف أحيا من خلال ممارسته.

من هنا يمكن ملاحظة معنى الهدف الذي تنطوي عليه العدالة الإلهية فإنه لا يوجد في ناموس الرب شخص مذنب حتى يحرم من الجنة، فلا وجود للمذنب في ناموس الرب لأن كل إنسان سوف يدفع ثمن الخطيئة، مثال آدم الذي وقعت عليه عقوبة الموت، وحرم من الخلود في الجنة.

يقول يعقوب الرسول في الإصحاح الأول الآية ١٥: «عندما تحدث الخطيئة فمن الضروري أن يقع الموت». ويقول بولس الرسول إلى أهل روميه في الاصحاح رقم ٥ الآية ١٢ «من أجل ذلك كأنما بانسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس أن أخطأ الجميع، وفي موضع آخر. لأن أجرة الخطيئة هي موت، وأما هبة الله فهي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا «الاصحاح رقم ٦، الآية ٢٣» إنني أرى أن القوانين والمبادىء الثابتة التي تبين الحياة من الموت كما تبين لنا مبلغ نصيب أتباع الحق من الخلود والبركة هؤلاء الذين يعملون الخير، ويحيون وفق ناموس الرب، إنهم الذين يبعدون دائما عن الموت في حين يقترب منه المخطئون الذين يحاسبون على آثامهم لفشلهم في الخضوع الكامل لناموس الرب تقول الآية: «إذا الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله» «رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، الاصحاح الثالث، الآية رقم ٢٣» إن هذا القول

ينطبق على جميع اليهود وغيرهم من سائر الأمم «الاصحاح ٥ الآية ٢٢» ويقصد هنا بمجد الله مملكة الرب التي في السماء.

وقد نتساءل في هذا الموضع عن علة اعطاء الرب مثل هذا الناموس للبشر حتى عصر تلاميذ المسيح؟

انني اعتقد أن هذا الناموس إنما يمثل طبيعة الرب النقية الطاهرة التي يجب على الإنسان العاقل اتباعها، والحياة فيها لأنها تمثل النور الذي يحدد طريق العودة إليه، والأسلوب الذي يلائم طبيعة الإنسان، لهذا فإنه يطلق على هذا القانون الالهي «ناموس العقل» أو «الناموس الطبيعي والعقلاني» وتأتي معصية الرب وعدم إطاعته من عجز الإنسان عن السير وفق هذا الناموس الرباني.

وتجدر الاشارة الى أن تمرد الإنسان على قوانين الرب إنما تمثل ضربا من التمرد المباشر على غرار ما يحدث في نظام الحكومات على الأرض فإنه لا توجد في العالم حكومة لا تتبع نظاما خاصا، يرتكز في نهاية الأمر على مجموعة من الحدود المعينة التي تساعد الإنسان، وتحدد سلوكه وأفعاله، تقول الآية المقدسة: «إذا آجد الناموس لي حينما أريد أن أفعل الحسنى إن الشر حاضر عندي».

تعليق :

يذهب لوك في هذا الموضع إلى الاعتقاد بأن عقيدته المسيحية تزداد وضوحاً وجلاءا عند دراسة العهد الجديد الذي يبرز فيه مذهب الفداء، ذلك المذهب الذي يقوم عليه الانجيل، والذي يفترض سقوط آدم إلى أن جاء السيد المسيح (عليه السلام) واستطاع أن يفتدي الانسان ثم يسهب لوك بعد ذلك في عرض بعض الآراء التي تناولت مسألة الخطيئة والفداء.

وعلى هذا النحو فإنه يحاول في هذا الكتاب الخاص بالصلة بين الفلسفة والدين أن يتعرض لخطيئة آدم، ويحاول تفسيرها وتحليلها من واقع نصوص الكتاب المقدس، وكذلك من النظر إلى أسفار العهدين القديم والجديد، مبينا كيف تحملت ذرية آدم خطيئته من بعده.

ويرفض لوك المعنى القائل بفساد الطبيعة الإنسانية أو الذرية كلها نتيجة لخطيئة آدم، بل يعده تفسيراً في غاية الغرابة، كما يذهب في هذا الصدد إلى أن الخطيئة ليست عامة، حقيقة أن المسيح يتنزل بسبب الخطيئة الأصلية ولكن ليس من المعقول أن يجزم كل الأفراد بسبب هذه الخطيئة الأصلية بدون أن توزن أعمالهم في الدنيا.

وهكذا فكأنه في الوقت الذي لا يجرؤ على إلغاء أو إبطال فكرة تنزل المسيح للخلاص من الخطيئة الأصلية نجده يحاول تحديد بعثة المسيح أو تنزله في أضيق الحدود، فيبيح أن تنزل رحمة الله على الخطائين طالما قد سلكوا سلوكا طيبا في حياتهم بل نرى أن رحمة الله تنسحب على المسيحيين متى تكرر خطأهم في الدنيا ما داموا يطلبون الرحمة والعفو والغفران من الله. وهي وجهة نظر بروتستانتية قريبة من الاسلام حيث تذهب الآية في القرآن الكريم إلى دعوة عباد الله الذين يأسوا من رحمته بألا ييأسوا من رحمته. تقول

الآيـة الكريمـة : ـ ﴿قل يـا عبادي الـذين أسرفـوا على أنفسهم لا تقنـطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[1] .

---

(١) قرآن كريم : سورة الزمـر آية ٥٣ ص ٣٩٠. قـرآن كريم ـ دار التـراث العربي للطبـاعة والنشر.

٢ ـ موقف لوك من المعجزات :

«إن الكثير من المعجزات التي تحققت على يديه، وبقدرته إنما تلعب دوراً هاما في حياة البشر الذين استفادوا منها وحلت عليهم بركته، فالمعجزات التي قام بها المسيح تعد من قبيل الحكمة التي لا يستطيع أن ينكرها لا أعداء المسيحية، ولا أتباعها ومن جهة أخرى فإن هذه المعجزات إنما تدل على وجود الرب الذي يباركها ويحققها بفضل قدرته، ذلك الرب الذي أشعر به وأجده حولي في يسر وسهولة.

إن المؤمنين هم الذين يشعرون بهذا الإحساس العميق بالوجود الإلهي المبارك الذي لا يشعر به غيرهم، لأنهم عرفوا طريق العودة إلى المسيح ذلك الطريق الذي يمتلىء بالمؤمنين ولا يعرفه الضالين الذين غشيت عقولهم وأستسلموا لما يقوله الكهنة من أفكار زائفة تحولت معها طقوس العبادة إلى شيء آخر يعيد عن روح المسيحية. لقد ساعدت الطقوس والشعائر التي مارسها الجهلاء والضعفاء على ظهور الرذيلة، والاعتقاد في الخرافات التي ما لبثت ان أنتشرت في العالم بتشجيع من هؤلاء الكهنة الذين صموا آذانهم عن صوت العقل والمنطق، وصبوا إهتمامهم على الأشياء التي لا صلة لها بالدين لكنها تتعلق ببعض الطقوس التي ابتدعوها والتي بسببها تخبط العالم في ظلمات الجهل بعيداً عن الرب الواحد الحقيقي».

تعليق:

يستمر موقف لوك الذي يدافع فيه عن المسيحية منذ بداية الكتاب، فيشيد في هذا الموضع بمعجزات السيد المسيح التي أزهلت الناس وانتشلتهم من ظلمات الجهل (الضلال) إلى نور الحق والإيمان بالرب الواحد.

ولقد أبرز لنا لوك في هذا الموضع دور الكهنة ورجال الدين في تزييف حقائق الدين. وتضليل الناس، وحثهم على الاعتقاد في الخرافات التي استشرت بسببهم في العالم كله.

وعلى الرغم من الاختلاف الواضح بين موقف كل من لوك وسبينوزا حول مسألة الوجود الإلهي بيد أن ثمة تشابه يبدو واضحا بين موقف كل منهما حول مسألة مهاجمة الطقوس الزائفة للدين التي شوهت جوهره الحقيقي، وانكار شعائر الكهنة الذين زينوا الباطل، وحولوا حقيقة الدين إلى مراسيم رخيصة للعبادة في محاولة منهم لاخضاع العامة من الجهلاء والأغبياء من المسيحيين، وكذلك مناداتهما بمراعاة استخدام العقل والمنطق في المسائل المتعلقة بالدين.

٣ ـ القانون الإلهي هو ناموس العقل أو الناموس الطبيعي:

«لقد كان الكهنة هم الطبقة المسيطرة على عقول ونفوس البشر في ذلك العهد، إذ اعتبروا أنفسهم الوسيلة الوحيدة التي تقرب الإنسان من ربه، وهكذا صور للعامة والجهلاء أنهم عاجزون عن رؤية الإله الخالق في حين أنه كان من المتيسر ادراكه ومعرفته بالعقل في يسر وبدون أن يروه.

إن هذه الناحية بالذات ـ رؤية الإله بالعقل أي إدراكه ـ هي ما لم يحاول الكهنة أن يفصحوا عنها للناس، لقد كان هدفهم الرئيسي هو تحقيق مكاسبهم التي دأبوا على أن تكون في منأى عن العقيدة الصحيحة، وقانون الإيمان المسيحي. ورغم ذلك فقد واصل العقل مسيرته مبيناً للبشر كل أمر من أمورهم، ومتحدثاً بوضوح تام عن الحكمة الإلهية والسلطة القادرة على الكشف عن إله واحد ينبغي على البشر جميعاً عبادته. وهنا يكمن القانون الإلهي، أو القانون الطبيعي الذي أتت به المسيحية».

تعليق:

ينقد لوك في هذا الموضع موقف أصحاب الكهنوت الذين ضللوا الجهلاء. وأخفو عنهم حقائق الدين التي تدعو إلى الإله الواحد، والأخلاق المسيحية التي تكمن في القانون الإلهي أو القانون الطبيعي.

ولقد اتفق مع الغالبية العظمى من مفكري عصره مثل روسو وغيره في الفكرة التي تذهب إلى أن الإنسان يولد نقيا، أو يولد وكأن لديه أخلاقاً طاهرة، وأن هذه الأخلاق هي التي توحى بها المسيحية. فكأن أخلاق الإنسان الفطرية أو الطبيعية تنسجم أو تتفق مع أخلاق الناموس الإلهي وينتج عن هذا أن المسيحية هي الدين الطبيعي. على ما يذهب لوك.

ونحن نعلم أن القرن الثامن عشر قد شهد نوعين من الدين: هما الدين الطبيعي (المؤلهة)، ومذهب المفكرين الأحرار. يمثل أتباع الدين الطبيعي

مجموعة الفلاسفة الذين أنكروا وجود.إله منزل من السماء، بيد أنهم يقرون وجوده عن طريق العقل، ويذهبون إلى أن الحتمية الطبيعية تدلل على وجود إله في الطبيعة، ومن ثم فلسنا في حاجة روحية إلى وحى، أو كتب مقدسة، أو كهنوت. وهكذا فقد سعى هذا الدين الطبيعي إلى الكشف عن وجود الإلة بدون العودة إلى الوحى. أما طائفة المفكرين الأحرار فقد أشاروا إلى وجود العلل الطبيعية منكرين في ذلك وجود إله للطبيعة.

٤ ـ موقف لوك من الدين :

«كانت عبادة الإله الواحد هي الدين القومي الخاص ببني إسرائيل وحدهم. وإذا نظرنا إلى سفر الرؤيا وجدنا أن بنى إسرائيل كانوا في جو شين في حين كان العالم يتخبط في الظلام عاجزا عن معرفة الإله الواحد، ولم يكن هناك في ذلك الوقت ثمة شعوب أخرى تعرف معنى نور العقل أللهم إلا بعض الإغريق الذي كان الفيلسوف سقراط واحدا من بينهم ذلك الرجل الذي كان يضحك ويسخر ويعارض مثل هذه الشعوب لشركهم بالله، ولما يعتنقونه من آراء خاطئة عن معنى الألوهية، وهذا ما يجعلنا ندرك كيف كانت مكافأتهم له.

أما أفلاطون وغيره من فلاسفة الأغريق فقد كان إيمانهم بالله ضعيفاً رغم تميزهم بسرعة البديهة تقول الآية: ـ «فوقف بولس في وسط زيوس باغوس وقال أيها الرجال الأثينيون أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيراً لأنني بينما كنت أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم وجدت أيضا مذبحاً مكتوباً عليه لإله مجهول فالذي تتقونه وانتم تجهلونه هذا أنا أنادي لكم به الإله الذي خلق العالم وكل ما فيه، هذا هو رب السماء والأرض لا يسكن في هياكل (معابد) مصنوعة بالأيادي، ولا يخدم بأيادي الناس كأنه محتاج إلى شيء إذ هو يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء، وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على وجه الأرض، وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم لكي يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه مع أنه عن كل واحد هنا ليس بعيداً» «أعمال الرسل، الإصحاح ٧ آية٢٢» وفي الآية رقم ٢٩ من نفس الإصحاح «فإذا نحن ذرية الله لا ينبغي أن يظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع انسان».

هكذا يشير بولس الرسول إلى الأثينيين الذين إستسلموا للخرافات على الرغم من وجود النور الذي كان سيساعدهم في الكشف عن وجود الله الحق،

ورغم ذلك فلم يهتد منهم سوى القليل، فعلى الرغم من قرب الله منهم وحضوره في كل مكان بيد أنهم ذهبوا يتخبطون في ظلمات الجهالة إلى أن جاء الرب مخلصنا وأرسل إلى هذا العالم، ومعه سفر الرؤيا الذي بدد هذا الظلام وجعل من الرب الحقيقي المجهول رباً واضحاً وجلياً. لكي يعرفه العالم عندئذ وضع حداً للشرك بالله وعباده الأوثان.

إن ربنا يسوع المسيح وهو الذي حمل راية الحب والسلام، وهو الذي بشر بالحق، وبنور الانجيل، وكذلك بعبادة الله الواحد الذي أصبح الجميع يؤمنون به. يقول النبي يوحنا عن مخلصنا يسوع في الاصحاح الثالث، الآية الثامنة: ـ «الريح تهب حيث تشاء، وتسمع صوتها، لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، هكذا كل من ولد من الروح».

لهذا السبب فقد أرسل ابن الله وتجسد على الأرض، كي يضع حداً لأعمال الشر، فأضاء العالم الذي كان في مسيس الحاجة إلى النور الذي أرسله الله حتى لا يكون هناك سواه واحداً، أزلياً غير مرئياً.

لقد أرسل السيد يسوع المسيح أو مخلصنا لكي يحطم حائط التفرقة الذي أقامه اليهود، بيد أنهم لم يصغوا إليه لكن رسالة السيد المسيح ظلت مستمرة ولم تقتصر معجزاته ورسالته السماوية على أرض كنعان أو المتعبدين، وحجاج أورشليم فحسب، لكنها تعدت ذلك وقام المسيح ذاته بالتبشير عن مملكة الرب في سوماريه (الضفة الشرقية لنهر الأردن حاليا) وقد ظهرت معجزاته في حدود المنطقة الواقعة بين مدينتي طور وسيدون وأمام حشود كبيرة تجمعت من كل مكان وبعد القيامة مباشرة أرسل تلاميذه فانتشروا بين الأمم وهم يقصون معجزاته التي كانت تحدث في وضح النهار إلى حد كبير لم يستطع معه أعداء المسيحية إنكارها».

تعليق :

إستمر لوك في عـرض أفكاره في الـدين وهو يـركز على مـوضوع الصلة بينـه وبين الفلسفة، فقـام بعرض تـاريخي لفكـره الإلـه في الـدين، مبينـاً دور العقيدة المسيحية ودعوة السيد المسيح، ودور معجزاته في التبشير بوجود الإلـه الواحد.

٥ ـ لوك بين الفلسفة والدين:

«إن موقف رجال الدين والكهنة من العامة والجهلاء قد حدا بالكثيرين إلى إعتناق مذاهب الفلسفة، لقد كان الفكر الفلسفي هو الطريق الموصل للفضيلة، وهو الذي يسهم في ترابط المجتمعات، وفي وضع قوانين الحكومات والقوانين المدنية Civil Laws التي تحمى الفرد وتفرض القانون الذي يحقق السعادة بين الناس.

وهكذا فقد تمكن الفلاسفة قبل ظهور السيد المسيح من وضع بعض الأنظمة والقوانين، ومحاولة البحث عن الحقيقة لكي يجعلوا من الأخلاق شيئا ملموساً وعملياً، خاصة هؤلاء الفلاسفة المسيحيين الذين وضعوا أيديهم على هذه الحقيقة منذ البداية، كما كانوا يسمعونه في ذلك العهد عن تجلي المسيح، والرؤيا أو التنبؤات التي قبلها العقل، ولم يتناقض معها مطلقا. بل صدقها من الوهلة الأولى لقيامها على الواقع، واستنادها إلى العقل، وبعدها عن الخيال.

وهكذا تبدو معقولية المسيحية، وهذا بالفعل ما يؤكده الجانب الأخلاقي المستمد من النور الطبيعي (الفطري) الموجود داخل كل منا، والذي يدفع للتقدم وعلى هذا النحو يصبح البحث في الأخلاق والفضيلة، وما ينطويان عليه من مفاهيم العاطفة والرذيلة، والخطأ من الأمور التي لا تقبل المناقشة لأنها استنباط واضح، استطاع أن يخلق، وهذا ما يظهر في حالة الجمع بين قواعد الأخلاق الخاصة بالفلاسفة، ومقارنتها بالقواعد الموجودة في الكتاب المقدس، وكتاب العهد الجديد. وسوف تكشف لنا هذه المقارنة بعد ذلك عن أن هذه القواعد أقل بكثير مما جاء به مخلصنا يسوع، وما علمه لتلاميذه.

وفي ضوء ما سبق يمكنني القول بأن الأقوال والحكم التي ذكرها عابدي الأوثان قبل عصر مخلصنا لا تمثل سوى مجموعة من هذه القواعد الخاصة بالأخلاق التي يمكنهم تلمسها بسهولة إذا ما قرأوا كتاب العهد الجديد مما

يؤكد من جديد مبلغ الحاجة إلى مخلصنا يسوع، وإلى قوانين الأخلاق التي أوحى بها الرب، مما يدل على علم البعض بمبادىء الأخلاق حتى قبل ظهورها في الإنجيل، وإنتشارها بين جميع البشر».

تعليق:

من خلال عرض ترجمة الجزء السابق للوك يتضح لنا إيمانه بأهمية الفكر الفلسفي في تحقيق الفضيلة، وفي إقامة الوحدة والترابط بين المجتمعات، وكذلك في وضع قوانين الحكومات، والقوانين المدنية التي تحمى الفرد، وتفرض القانون الذي يحقق الرخاء والسعادة بين الناس.

وفضلا عن أهمية الفلسفة يبرز لوك أهمية الدين الطبيعي، ومبلغ إهتمامه بمثل هذه الأسباب الطبيعية كما يبين مراحل تطوره وكيف تعسر في دوره منذ البداية، بيد أنه إستطاع بعد ذلك أن يضع أسس الأخلاق التي توضح هذا النور الإلهي بعيدا عن السوقية الذين عجزوا عن تلمس هذا النور على وجه الأرض بواسطة قدرة الله وسلطانه الذي يشعر به الجميع.

وعلى هذا النحو يصبح القانون الطبيعي هو الملك أو المشرع الأساسي للقانون الذي يشير إليهم بواجباتهم ويدفعهم إلى التزام الطاعة التي يقبلها الله. ثم ذهب لوك بعد ذلك يبرهن على معقولية المسيحية من خلال برهنته على واقعية النبؤات واستنادها إلى العقل.

٦ ـ الدين منبع الأخلاق:

«ولنفرض أن مبادىء الأخلاق قد جمعت بعضها إلى البعض، فظهر بعضها في سولون Solon, وبياس Bias في اليونان، كما ظهر البعض الآخر في تولى Tully في ايطاليا، ولكي نستكمل هذا العمل نشير إلى ظهور البعض منها

في مسـافة أبعـد مثل الصين عنـد كونفـوشيوس Confucius والبعض الآخـر لأنا كارسيس Anacarsis وبعد ذلك نتساءل؟ ما الذي كان يستطيـع أن يفعله هؤلاء لكي يقدموا إلى العالم مثل هذه المبادىء الخاصة بالأخلاق؟ وهـل كان في إمكـان الإنسان أن يتعلم من قانون الحياة لكي يضيف شيئاً إلى الأخلاق؟

هـل يعني ظهور الأخـلاق قبـل المسيحيـة؟ أن أرستبـوس Aristippus أو كونفوشيوس قد ملكا زمام السلطة والمقدرة؟ وهل نستـطيع الجـزم بـأن زينـون Zeno كان مشرعا لقانون البشر، الحق أن مـا ذكره هؤلاء الفـلاسفة؛ لا يعـد أن يكون مجرد حكم أو أقوال خاصة بهم لا إلزام على الانسان كي يؤمن بها.

وعلى هذا النحو فقد مثلت قواعد الأخلاق القائمة على العقل التي نادى بها الفلاسفـة قانونـاً للطبيعـة خاصـة بعد ظهـور مخلصنا الـذي يمثل الـداعية لقانون العقل والإقتناع.

ولعـل هؤلاء الفلاسفـة ـ الذين تحـدثوا عن الأخـلاق ـ قـد تـوصلوا إلى الفضيلة بنـور العقـل (التـأمـل)، وحب الحقيقـة بـدون أن يعـرفـوا المبـادىء الحقيقيـة لقانـون الطبيعـة وأسس مبـادىء الأخـلاق. ورغم ذلـك فهنـاك ثمـة تماسك ووحدة تجمع بين الفلاسفة والحكماء وهو ما يعد من روائع الأمور في حد ذاته.

لكن يجب مـلاحظة أن هنـاك الكثير من الأمـور التي تحتـاج لكي تـظل راسخة في أذهان البشـر إلى سلطان قوى وقـدرة تساعـد على بقائهـا، وتجعل العقل يؤمن بقوة بها ألا وهي المسائـل التي تستند إلى التجلي كمـا جاء بسفر الرؤيا.

والحق أنه لا يوجد كاتب أخلاقي واحد، أو ناقل عن الآخـرين يستطيـع أن يسن مثل هذه القوانين للبشر حتى أن الـدكتاتـور ذاته لا يستـطيع أن يضـع القوانين أو يعمل بهـا لمجرد أنهـا من خلاصـة فكره، لأنـه ليس في استطاعـة

الانسـان أن يسن القـوانين التي يؤمن بهـا الآخـرين مـا لم يـوحى إليـه الـرب بوصاياه إلى هذا العالم.

وهذا بالفعل ما لم ألحظه في المرحلة التي سبقت ظهور مخلصنا يسوع الذي علمنا مبادىء الأخلاق باعتبارها قانونا واضحاً.

ولكن من هو ذا الذي وضع التزامات هذا القـانون؟ ومن ذا الـذي شرع أجزاءه ووضعها معاً، وأظهرها في العالم باعتبارها إلتزاماً؟ وهل كان هناك مثل هذا القانون قبيل ظهور مخلصنا يسوع؟

فلو فـرضنا أنـه لم يكن هناك مشـرعا؟ في الـوقت الذي كـان ينبغي فيه وجـود قانـون يضع لنـا قواعـد الأخلاق التي تـوجه من يـريـدون سلوك سبيـل الصواب فمما لا شك فيه أن هؤلاء الـذين سبقوا السيـد المسيح كـانوا سـوف يتمكنون من سن القوانين، لما يتمتعون به من عقل واعي وفكر ناضـج، ولهذا فلن يخطأوا في وجباتهم بل سوف يصيبون في أهدافهم وسلوكهم:

لقد إستطاع المسيح أن يقدم لنا هذا القانون الأخلاقي من خلال العهـد الجديد، وظهور المسيحية، وعن طريق تجلي السيد المسيح نفسه الذي وضع لنا القواعد الكافية.

ولقد جعل دليل المسيح الـذي تجلى في معجزاتـه فضلا عن قـدرة الله جعل الحقيقة والإلتزام ميزة من ميـزات القوة السمـاوية، وقـانونـاً حقيقياً قضى على شك الماضي.

والآن دعني أسأل أي من هؤلاء الفلاسفة أو المفكرين عن مبلغ اكتمـال ووضوح مذهب الاخلاق قبل مولد مخلصنا؟

وهـل هو الـذي وجه كـل من بروتـوس Brutus وكـاسيـوس Casusوهمـا رجلان أحدهما مؤمن والآخر ملحـد لكي يقبلوا قواعـد الأخلاق، ويلتـزموا في كل الامور المتعلقة بواجباتهم.

وهل استطاع كل منهما أن يجد هذا القانون الذي وضعه، وهل استطاع أن يعيش به؟ إن هذا القانون كفيل بالإقرار بأن هذا مذنب، وذاك بريء.

أما في حالة الدين السماوي الذي يرسل إلى هذا العالم وهو يفيض بالنور السماوي، فإنه يكون موضع قبول عقلي. بيد أن البشر قد أخفقوا في وضع هذا القانون كاملا، ويظهر ذلك من وجود بعض المشكلات التي وضعها بعض الفلاسفة بدون حلول فألقوا بها الشك والريبة في النفوس.

إن أي إنسان يفكر في قبول عذر الطبيعة البشرية بالقاء اللوم على اهمال الإنسان نفسه لا يضع بذلك القواعد الأخلاقية في منزلة عالية. ولا يساعد في حل المسألة. ولقد وجد مخلصنا أن البشر يخضعون لأساليب فاسدة تفشت مبادئها عاما بعد عام. بحيث استعصت فيما بعد على التغير، وتبع ذلك أن جاءت قواعد الأخلاق متباينة من بلد إلى آخر، ومن طائفة إلى أخرى. بيد أن هذه الإختلافات لم تقضِ على مثل هذه الأخطاء التي غمرت أعماق البشر ومن ثم كان من الضروري وضع المعايير التي تحدد الصواب من الخطأ.

وهكذا فقد لعبت القواعد الأساسية للحياة الأخلاقية التي أوصى بها الدين دوراً هاماً في الحياة لم تقم به القوانين المدنية، أو توصيات الفلسفة.

ولكن هل كان هناك ما يسمى بالالتزام الذي يسمح للناس باستيعاب مبادىء القانون، ذلك القانون السماوي أو قانون «الطبيعة» الذي لن تتم معرفته بالطبع بدون المعرفة الواضحة والإعتراف بمشرع القانون، ألا وهو الله الذي يحدد مكافأة وعقاب من لا يدخل في طاعته.

إن تاريخ الوثنيين يخبرنا بأنهم لم يراعوا قواعد أخلاق هؤلاء العبدة، فضلا عن وجود الكهنة الذين ادعوا أن الآلهة أوحت لهم من السماء، كما تحدثوا إليها، لقد كان هؤلاء على قدر قليل من الفضيلة، وكذلك الفلاسفة الذين استخدموا المنطق واستندوا إليه، ولم يشيروا إلى الألوهية في قواعدهم الخاصة بالأخلاق، كما لم يذكروا من الحقائق غير هاتف الغيب.

وعلى هذا النحو يعجز الانسان عن رؤية الحقيقة كاملة، فلا يرى إلا أجزاء منها، ويصبح حينئذ في حاجة ماسة إلى نور من السماء لكي يكشف له عنها».

تعليق:

يرى لوك في هذا الموضع المتعلق بموقف الدين من الأخلاق أن الدين هو منبع الأخلاق، وأن الحياة الأخلاقية للبشر الذين عاشوا في العهود القديمة ـ الأديان الوثنية ـ قد كشفت عن بعض المبادىء الأخلاقية التي تمكن هؤلاء من الوصول إليها بنور العقل، وبالفطرة وأن الدين في النهاية إنما يتفق مع هذه الأخلاق الطبيعية التي تصدر عن العقل.

ولقد جاءت الأخلاق التي نادى بها الدين متوافقة مع الفطرة السليمة للانسان حتى قبل ظهور الدين المسيحي بيد أن تعدد مدارس الفلسفة، واختلاف وجهات نظر المفكرين حول قواعد الالتزام الخلقي، جعلت الإنسان لا يدرك سوى أجزاء من الحقيقة التي اجتهد الدين بعد ذلك في الكشف عنها، وتوضيحها وتقريبها من عقول ونفوس البشر الذين أصبحوا في مسيس الحاجة إلى نور من السماء يكشف لهم عنها.

٧ ـ المعرفة والنور الفطري:

إن البشر في حاجة ماسة إلى القدرة التي تقرر A Test الأمور بدلاً من الركون إلى البراهين التي يعتمدون عليها لاثبات شيئا ما، ولا يمكن بعد ذلك أن نطالبها بشيء أكثر، لأنه ينبغي تقرير كل الأمور، وعلى هذا النحو نجد المعلمين يعتمدون على البراهين اليقينية التي تترابط بخيط متماسك من المبادىء أو المبدأ الأول، الخاص بالقواعد المرتبطة بالأخلاق، وهذا ما يجب أن يتبعه الجميع سواء من يعملون بالمعامل، أو رجال التجارة أو الرياضيات إن الغالبية العظمى من البشر لا يعرفون هذه الحقيقة إلا أنه يجب عليهم الإيمان ولكنني أتساءل.

هل الذي يرسل من السماء بقوة الله هو الذي ينبغي عليه أن يقدم الدليل ويقرر الأمور (أداء المعجزات المتعددة والمختلفة) لكي يقدم للناس القواعد المباشرة للأخلاق والطاعة، ويوجههم إلى أداء واجباتهم بالحق، تلك الواجبات التي يحولها من مجرد أفكار عامة إلى مبادىء تخضع لعقل الانسان الذي يجب أن يطاع فحسب، والذي يقرر الأمور بوضوح، كذلك جميع الواجبات الخاصة بحياة الإنسان.

وأنني أرى إنه إذا فكر الإنسان بروية وتأمل عقله في معالجة مشاكله، فسوف يطمئن إلى أن منهج تعليم الناس حقيقة واجباتهم إنما يأخذ المسار السليم الذي تؤمن به القلة التي تتفهمه والتي تستخدم العقل في إستنباط الأمور الصالحة. إن الأمور قد أخذت صورة المبادىء التي قال بها الانجيل، والتي أتت عن طريق المعجزات التي يشهد بها شفاء المرضى، واستعادة البصر. إن كلمة تقال تكفي لكي تضع الروح في الموتى من جديد، وهذه المسائل إنما تتم بمساعدة القوة الإلهية، فمن ذا الذي يقدر على التمييز بين المريض وغيره، بين الأعرج والسليم، بين الميت والحى. إنه الإنسان الوحيد

الذي يعرف المذهب الذي يثبت أن يسوع المسيح قد أرسل من قبل الرب ليكون ملكاً ومخلصاً لهؤلاء الذين يؤمنون به.

لقد أصبحت وصايا يسوع المسيح بمثابة مجموعة المبادىء التي لا تحتاج لبرهان يؤكد حقيقتها أو حقيقة ما جاء في الكتب المقدسة المستوحاة من الرب. تلك الكتب التي تضم الوصايا والواجبات الخاصة بمبادىء الأخلاق الواضحة الميسرة الفهم.

لقد كانت شهادة المعجزات Attestation Of Miracles التي أقتنع بها الكثيرون ممن آمنو بالعقيدة من المميزات التي كان يتمتع بها مخلصنا يسوع وتلامذته الذين كانوا يؤمنون بكل ما هو طاهر ومقدس تماماً. ويعملون على نشر الأخلاق التي تشعر من يمارسها بالسعادة اللامتناهية.

وفضلا عن شهادة المعجزات كانت هناك ميزة أخرى للسيد المسيح، وهي ميزة القدرة على مواصلة الحياة أو دفعها بالنسبة للمؤمنين بالواجب وتذليل الصعوبات والعقبات التي تعتريهم فقد كانوا يقاسون المتاعب لحسن ضمائرهم، وصفاء قلوبهم.

ويجب أن نعلم أن الفضيلة والرفاهية لا يجتمعان معاً في هذا العالم فقد كان للفضيلة أتباعها كما كان البعض الآخر يسعون إلى تحقيق أهدافهم عن طريق بعض المبادىء الخاصة بالأخلاق حتى يحققوا سعادتهم، لقد كان هذا هو أسلوب الأميين الذين كانوا يفكرون في الحياة الأخرى المتعلقة بمملكة الرب وقد عرفهم شعرائهم ببعض الأسماء مثل ستيكس Styx وأشيرون Acheron واليسيان Elysian إن فكرهم لم يتعدى الأشعار - التي كانت ترتبط في أذهانهم بالأساطير التي آمنو بها. وكان بعضهم يتابع الفلاسفة، ويؤمنون بالقواعد والمبادىء الخاصة بأفكارهم التي تبشر بالحياة الأخرى فقد كانوا، كما سبق أن ذكرت - يستندون في حججهم إلى الفضيلة التي تقوم عليها كمال الطبيعة البشرية. لقد كان هناك كذلك - قبل عصر مخلصنا طبقة الكهنة الذين

تحدثوا عن الأشباح والأرواح لدفع الناس إلى الإيمان بالخرافات، ومداومه ممارسة عبادة الأوثان».

تعليق:

يرى لوك في هذا الموضع أن الطبيعة البشرية وأخلاق الفطرة التي مارسها الناس قبل عصر المسيح كانت هي ذاتها نفس الأخلاق التي بشر بها الانجيل، وأنار بها السيد المسيح عقول المؤمنين بالدين فأصبحت وصاياه تمثل مجموعة المبادىء الخلقية، فضلا عن معجزاته التي أذهلت الجميع، ويبين لنا لوك في هذا الموضع كذلك مميزات السيد المسيح من القدرة والقوة التي وهبها الله له، والمساعدة على الحياة بما يمنحه من نور الإيمان وبيان معجزاته للمؤمنين به.

وإذا حللنا هذا الموقف عند لوك وجدناه يتقابل إلى حد كبير مع آراء مالبرانش في الدين فهو يقول في أحد نصوصه التي تتفق مع موقف لوك: ـ «لما كان الله هو الحاصل على القدرة التي تمنح المخلوقات الوجود وعلى النور الذي ينير عقولهم، والقانون الذي يدبر إرادتهم بحيث لا يملك سواه هذه القدرات... لهذا تصبح عدالة توزيع النور الإلهي بين العقول هي مصدر الذكاء ومنبع الفهم، أساس القدرة على الاتحاد بالله الذي ينيرها وينقيها، ويهبها القدرة والتدبير»[١].

كما يتفق موقف لوك مع موقف بسكال كذلك في صحة الدين وتوافقه التام مع الطبيعة الإنسانية منذ بداية التاريخ، وإن هذا التوافق يظهر على ثلاث مراحل: هي معرفة الدين الكاملة باحتياجات الإنسان، ومحاولة سدها أو

---

(١) Malebranch N: **La Recherche De La Vérité.**

إشباعها، كما يذهب بسكال إلى وجود ثلاث علامات للدين هي الاستمرار والديمومة والحياة الخيرة[1].

وهكذا يبرز لنا موقف لوك المسيحي الذي يبرر الدين ويتفق فيه مع فلاسفة المدرسة الديكارتية أمثال مالبرانش وبسكال.

---

(1) Pascal. B: **Pensée** 357 P. 428

٨ ـ الفضيلة بين الفلسفة، والدين الخالد:

«لكن معجزة السيد المسيح قد أتت، وأدهشت الكثيرين من الناس لأنها انبثقت وسط هذه الأطلال والتقاليد الماضية والبالية (العادات الوثنية) التي سيطرت على أعماق الناس بل خاطبت أعماق قلوبهم، بيد أنهم كانوا يعلمون تماماً أن هناك شيء ما بداخل الإنسان سوف يساعدهم على الهرب من القبر إلى حياة كاملة خالده، وهذا ما أعطى لمبادىء المسيحية جدتها وخلودها، إذ جاء يسوع المسيح مبشراً بهذه الحياة الخالدة، وقام بعمل المعجزات المختلفة التي كان يعود فيها بالموتى إلى الحياة مرة أخرى، كما يبرهن على موته وقيامته ثم صعوده إلى السماء.

ولقد استطاعت حقيقة السيد المسيح (الواحدة) أن تغير من طبيعة الأشياء في العالم، وقدمت المعنى الحقيقي للتقوى على كل محاولات الأغراء، أو ردع الإنسان. لقد استطاع الفلاسفة أن يبرزوا لنا جمال الفضيلة فأطلق أتباعها العنان لها غير أن البعض كان يرفضها. ولقد شعر من يتمسكون بها أن هناك مقاييس ومعايير تحكمها فضلا عما تتميز به من مجد خالد، لهذا فقد أصبحت قاعدة يعمل بها الجميع لضمان السعادة الأبدية.

ولقد نجحت الفضيلة ـ في ضوء ما سبق ـ في تأكيد وجود حياة أخرى للناس، الذين تمسكوا بمبادئها بعدما شعروا بنتائجها الخيرة التي برهنت على وجودهم، ولم ينس أتباع الفضيلة أن ينظروا إلى المسائل الآخروية الخاصة بالسماء والجحيم حيث تبين لهم مقدار التمايز الكبير بين المتعة السريعة، والآلام التي يتمكن المرء من تجنبها حين يخضع للفضيلة والعقل. وهكذا يصبح المذهب الخاص بالفضيلة الذي تابعه الفلاسفة بمثابة تحدي لأى منافسة، وهذا ما جعله يأخذ صورة العمل الطيب ولقد جاء الانجيل ويسوع المسيح ليقدما لنا هذه المبادىء».

تعليق :

يبين لنا لوك في هذا الموضع جمال الفضيلة التي أتى بها الدين وتحدث عنها يسوع المسيح، وهو يحاول هنا أن يربط الأخلاق والسلوكيات التي نادى بها الفلاسفة وبين الأخلاق الدينية التي بشر بها الدين. وعندئذ يصبح المذهب الأخلاقي عند الفلاسفة مذهباً رائعاً وخالداً لأن الأنجيل ويسوع قد قدما لنا جميع مبادئه وهكذا تظل الفضيلة موضوعا مشتركاً بين الفلسفة والدين الخالد ـ على ما يذهب إلى ذلك لوك ـ .

٩ ـ الدين والحياة الخيرة:

«وفضلا عما سبق فإنني أضيف ميزة أخرى للدين وهي المساعدة التي وعد بها السيد يسوع المسيح، وتعني أنه إذا استطعنا أن نفعل ما في مقدورنا ـ في سبيل الدين ـ فسوف يساعدنا روح القدس ويرشدنا في كل سبيل، وسوف تظل روح الرب باعتبارها المثل الأعلى الذي يجب أن يهتدي به، ومن ثم يتمكن الرجل العاقل من هداية أبنه وتوجيهه إلى الطريق الذي يحقق له رغبته.. إذن فما قولك بروح القدس، روح حكمة الرب هل تخفق في تحقيق أي من رغباتنا؟

وهكذا فإنني أقول أن يسوع المسيح قد وعد بمساعدة المخلص والعادل، وهذا وعد يقيني سواء في العمل أو التنفيذ فالكثير منا قد يخطىء طريق الحق. وطريق الفضيلة بيد أن المسيح يحاول هدايته وعلى من يريد التعلم أن يوجه نظره إلى عصور العالم السالفة لكي يقتنع بأن سلوك طريق الخطيئة والرذيلة والاغراء لم يدفع إلى تعلم الفضيلة أو ممارسة الدين الحقيقي إلا بواسطة رجل قادر وذراع قوي، رجل يقدم الوعد بالمساعدة والمؤاذرة لكي ينتشل الناس من طريق الرذيلة والخطيئة».

تعليق

يتضح من ترجمة هذا الموضع دعوة لوك الصريحة إلى الارتماء في أحضان الدين، والإيمان بإنه مبدأ الحياة الخيرة وأن من يخلص في العبادة وطاعة الرب هو الذي ينال مرضاته وهدايته، فيساعده روح القدس، وتظل بركة الله معه. ويدلل لوك على دور العقيدة المسيحية الخير بالدعوة إلى النظر إلى ماضي تاريخ العالم والمقارنة بين سلوك الرذيلة الذي كان هو سلوك الإنسان ثم كيف تحول هذا السلوك إلى حب للفضيلة والخير بقدوم المسيحية التي كانت تدعو إلى قيم الحق والفضيلة والخير.

ولقد أتى المسيح الموهوب بالقدرة والبركة فاستبدل الظلمة بالنور، والخطيئة بالفضيلة.

وعلى هذا النحو الذي يدعو فيه لوك إلى محبة الدين باعتباره مرفأ المؤمنين، فإنه يتفق مع بعض الفلاسفة المسيحيين الذين أولو الدين أهمية بالغة في تحقيق حياة فاضلة وخيرة للمؤمن ـ وأن إيمانهم بالسيد المسيح إنما هو وعد بالمساعدة، والمعاونة في الوصول إلى راحة الضمير، وطاعة الله بالامتناع عن سلوك الرذيلة والشر، وتأدية أعمال الخير والبر.

وإذا حللنا موقف لوك من الدين لوجدناه يكاد يقترب من موقف الفلاسفة المسيحيين الذين أسسوا مذاهبهم في ضوء الكتاب المقدس المسيحي، وليس مستغربا أن نجد هذا الموقف الديني يكمن بين ثنايا فلسفة الدين عنده، لا سيما وقد كان فيلسوفاً مسيحياً في المقام الأول، فضلاً عن مساعدة مذهبه التجريبي وركونه إلى عنصر الخبرة في فلسفته على الخوض في مجال الدين بالروح نفسها وبالمنهج نفسه الذي طبقه في ميتافيزيقاه منذ البداية، فنجد أن إشارته إلى الدين تنطوي على تجربة له وخبرة به، فهو دائما وفي أغلب مواضع كتابه يحاول أن يميز بين مرحلتين في حياة الإنسان هما المرحلة السابقة على المسيحية واللاحقة عليها، ويذكر أنهما مرحلتان متمايزتان تمام

التمايز، لأن أحدهما نشـأت في الظلام، والأخـرى في النور الـذي وهبه لهـا السيد المسيح. فالإنسان في المرحلة الأولى كان بعيداً عن الله وبالتـالي بعيداً عن ممارسة الفضيلة والخير ولكن ممارستـه للدين ودخولـه في تجربـة فيه قـد برهنت على أنه منبع الفضيلة والأخلاق التي يتفق مع فطرة الإنسان.

وهنـا يقترب لـوك حثيثاً من مـوقف بسكال الـذي يرى أن طبيعـة الـدين تتوافق وحاجات الإنسان وفـطرته، وأن سعـادته تكمن في استمـرار إيمانـه بالله والعمل بإرشاداته ذلـك الإله الـذي يسعد المؤمن في القـرب منه، ويشقى في الانفصـال عنه، وأن الـواجب يدفعنـا إليه في حين تبعـدنا عنـه غـرائـز النفس وشهواتها.

١٠ ـ الدليل على الدين :

«إن هناك كلمة لا بد من تسجيلها لهؤلاء الذين سيعترضون هي : أنه إذا كان الدين الذي جاء به يسوع ابن الناصرة وهو المعروف بالمسيح قد أكد على أنه سوف يموت ويعود للحياة، وقد حدث ذلك، ثم قيل بعد ذلك أنه سوف يصعد إلى السماء ثم يعود ليحكم العالم، وقد حدث أنه صعد للسماء. إذن فما هو المطلوب أكثر من ذلك كي يبرهن على صحة وتأكيد هذا الإيمان الذي لا يحتاج إلى تبرير.

إن ذلك يجعلني أعتقد أن يسوع جاء بمثابة المخلص للمسيحية ومن ثم فسواء آمن المسيحي أم لم يؤمن فإنه يمثل عضواً في كنيسة المسيح بل عضواً مخلصاً أيضاً أليس كذلك؟

إن الرسائل الإنجيلية التي كتبت خلال مراحل ومناسبات مختلفة إنما تعني هدفاً نبيلاً واحداً. ومن ثم فإنه ينبغي على من يقرأ هذه الرسائل أن يضع في حسبانه أنها تهدف إلى إيجاد الحجة القوية بين أيدينا. تلك الحجة التي سوف تساعدنا في معرفة المعنى الحقيقي الذي يدور داخل عقلية ومخيلة الكاتب من حيث أنها الحقيقة التي أوحى بها إليه، وهي حقيقة التماسك الذي يتمتع به الكتاب المقدس، وكذلك الترابط الذي يبدو واضحاً بين أجزائه. إنها حقيقة ينبغي علينا الإيمان بها وليست مجرد بعض الجمل المبعثرة، أو الموضوعة بلا هدف بلغة الكتاب المقدس. إن كلمات الرب إنما تشير إلى أصل الدين وتضع أسس العقيدة المسيحية التي تنادي بالخلاص من الخطيئة، وإلا فلماذا وضعها الرب في كتبه المقدسة التي تتحدث عنها التوراة كثيراً، ويجهلها بعض المسيحيين بل قد لا يؤمنون بها بيد أن رؤية الإنسان العميقة والمتأملة لهذه الكتابات إنما تطلعه على الحقائق الواضحة الحيلة أمام عينيه وكأنها بعض المقالات أو الرسائل الانجيلية التي جاءت خصيصاً لهؤلاء الذين

يؤمنون بالمسيحية والمسيحيين ذاتهم، خاصة هؤلاء الذين يلهثون وراء الخلاص.

إن حقيقة الدين تتجلى من خلال التبشير الذي يقوم به مخلصنا يسوع وتلاميذه من أجل هؤلاء الذين ما زالوا يعتبرون غرباء وجهلاء لا يعرفون شيئا عن هذا الدين، وهم ينتظرون من يدفعهم للايمان، واعتناق الدين المسيحي. وهكذا تحدد الدور الذي لعبه تلاميذ المسيح، وأصحاب الرسائل الانجيلية. من خلال تاريخهم العريق فيما يشهد به كتاب أعمال الرسل، فضلا عن الرسائل الانجيلية التي كانت ترسل إلى بعض الكنائس، وكذلك البراهين التي تفسر الهدف من الدين المسيحي وكيفية اعتناقه، والعمل به من أجل الخلاص ففي إحدى هذه الرسائل الانجيلية إلى شعب أو أهل رومية نجد شرحاً وافياً لمعنى نعمة الرب التي سوف يمنحها الله خالدة لاولاده في مملكته الذين أصبحوا أولاده وشركاءه في مملكة الرب في السماء باعتبارهم ورثته.

وفي موضع آخر من هذه الرسالة اشارة إلى حقيقة الدين المسيحي الذي حاول اليهود القضاء عليه بحججهم الواهية، وأوهامهم التي جسدوها في طقوسهم الدينية وقرابينهم معتمدين في ذلك على النظام الإقتصادي اليهودي، ومستندين الى كتب العهد القديم.

والحق أن هؤلاء الكتاب المقدسون (الرسل) قد كتبوا الحقيقة التي لا يعرفون غيرها ومن ثم فإنه لا ينبغي علينا النظر الى تلك الرسائل الانجيلية بعجلة دون أن نتمعن ما جاء فيها من حقائق: ودون النظر إليها باعتبارها رسائل أساسية وضرورية للخلاص والا فلن يصبح المرء عضواً في كنيسة يسوع المسيح، كما لن يقبل في مملكة الرب ويتمتع بحياة الخلود.

ولكن إذا كان الحق هو كل ما جاء بهذه الرسائل الأنجيلية فماذا نقول إذن عن هؤلاء المسيحيين الذين ما زالوا يغطون في نوم عميق على حد قول

الرسول بولس في رسالته الأولى الى أهل كورنثوس: لقد كان الكثيـرون منكم يغطون في نوم عميق قبل ظهور تلك الرسائل الانجيلية.

إن معظم هذه الرسائل الإنجيلية الخاصة بالتبشير لم تكتب الا بعد مرور عشرين عامـاً من صعود المسيـح مخلصنا الى السمـاء، كما كتب بعضهـا بعد ثـلاثين عامـاً. لكن البعض قـد يتسـاءل ألم تـأتي هـذه الحقـائق التي ذكـرت بـالرسـائل الأنجيليـة عن ضرورة الخـلاص للمؤمن وغيره على حـد سـواء في تبشير يسوع مخلصنا وتلاميذه من قبل؟ .. فما الداعي إذن لنشرها خاصة وأنه لـم يكن يوجد هناك أي خطر يهـدد هذا الـدين؟ وهل كـان يمكن لأي مسيحي أن يناقشها دون خوف أو شك في أمرها؟

أنني أقول أن العهد بحرية نعمة الرب هي نـاموس هـذه العقيدة، وعلى الرب أن يحدد ما هو الضـروري للايمـان، ولكل فـرد ما يختـار، أما الله فـإنه يختار المقياس أو المعيار الذي يحدد صحة تدين وتقوى المتدين الذي يعمـل بما جاء في الدين، وبما أنزل على الرسل، لذلك أقول أنـه ليس في وسع أي شخص أن يضيف شيئاً إلى هذه الـرسائـل الأنجيلية التي تتعلق بهـذا الإيمان الذي وضع الرب أسسه العريضة. وهو يعلم في الوقت ذاته متطلبـات الخلق، ولهذا فيجب علينا أن نطيع ما جاء بـه الرب لكي ننعم بـالنعمة المقـدسة، في عهده الجديد الذي ظهر قبل ذلـك من خلال الكتب المقـدسة، وخـاصة هـذا الأنجيل الذي يبشـر به يسـوع المسيح الـذي يساعـدنا على تحقيق الخـلاص المنتظر.

وهناك أجزاء أخرى من الوحى الإلهي تعد أشياء خاصة بـأسس وأهداف الإيمان ذاته، وهي تلك الحقـائق التي تبشر بمـا سيقبل أو يـرفض من المرء، وبمن يؤمن أو لا يؤمن، لأن هذا الوحي الالهي يبين الأساس الذي تقـوم عليه الحقيقة التي تؤكد وجود الرب وتبرهن على أنه الحق، ولقد أوحى بالكثيـر من هـذه الحقائق في الإنجيـل ذلك الكتـاب المقدس الـذي يجمع النـاس حـول

مملكة الرب من أجل الخلاص، ورغم ذلك فهناك بعض الأدلة التي تؤكد على سوء تفسير بعض المعاني التي جاءت في النصوص المتعددة للكتاب المقدس والتي تخلق ضرباً من ضروب التناقض في فهم هذه الكلمات الموحى بها.

إن الوحي الإلهي لا يتطلب سوى طاعة الدين نفسه، وما يوحى به من حقائق في الكتب المقدسة، لأنها تبين ناموس العقيدة التي يتطلب الإيمان بها، وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال الدور الذي قام به مخلصنا يسوع المسيح ورسله أو تلاميذه، وكذلك من آمن به وأعتنق دينه، ان هؤلاء هم رجال الدين الذين لا يجب النظر اليهم باعتبارهم غير مؤمنين.

وعلى هذا النحو فإنه يجب على كل إنسان أن يقبل ما جاء في الكتاب المقدس من حقائق باعتبارها جزءاً ضرورياً من ناموس الإيمان (فإن الله إن يقدر الإيمان لأي إنسان طالما أنه لم يقبله قبولا حقيقياً) ولذلك فينبغي على كل إنسان أن يؤمن بكل ما جاء به الرب وأوحى به من السماء، وأن يتفهمه جيداً، ويتجنب الجهل به، وإلا فكيف يتجنب الجهل في مثل هذه الأمور، أنه سوف يتساءل عن كيفية وجود عدة نصوص دينية متباينة وكيف أنها لم توضع في نص واحد؟ وما هو العلاج؟

وهكذا فيجب على الإنسان أن يقوم بتفسير تلك النصوص والرسائل الانجيلية معتمداً في ذلك على العقل، وعلى ناموس الرب الذي يعد الشيء الوحيد المقبول عقليا إن كل ذلك سوف يحدث اللهم إلا إذا أعتقدنا أن المخلوق الغريب لا بد وأن يحكمه ناموساً غريباً.

لقد وعد الله الإنسان بارسال المخلص إليه، لأنه علم اندفاعه للفساد وشعوره باليأس فجاء يسوع المسيح ـ كما وعد الله ـ لكي يحقق بعض المعجزات ومنها قيامته من الموت ليصبح بجوار الرب، ويحكم البشر معه أي لكي يصبح ملكهم، وحاكمهم.

إن هذه الكلمات التي أكتبها هنا إنما تعد من الموضوعات التي يفهمها أي إنسان حتى الأمي ذاته يمكن أن يفهم ويستوعب حقيقة هذا الدين، الذي يضيف إليه رجاله بالأفكار الكثيرة التي تجعل من إنجيله شيئاً حقيقياً وأساسياً، ومعمولاً به من خلال الكنيسة، أو الجامعة أو قاعات المحاضرات، أو من خلال المناقشات العامة.

وعلى الرغم من كل ذلك فإننا نجد أن الغالبية العظمى من البشر ليس لديهم من الوقت ما يكفي لتعلم الدين والمنطق أو حتى للتمييز بين المدارس ذات المذاهب المختلفة، وفي حين نجد أن معظم البشر يمسكون المحراث بيد والجاروف بالأخرى نجد أن عقولهم تركز على بعض الأفكار الأخرى أو ممارسة الأشياء الغريبة الغامضة.

والحق أن وجود نزاع أو خلاف حول الكتب الدينية لا يحول دون فهم العقول، أبسط العقول لها لأنه قد يختلف الجميع حول المسائل الدينية لكنهم يفهمون ما يقصده الرب.

ولهذا فيجب على جماعات المصلين أن يتفهموا تلك الأمور الدينية من معلميهم حتى يتقبلوا الأمور والمسائل بدقة وعليهم أن يتفهموا حقائق الدين بدلا من الركون إلى سماع العامة والمشعوزين الجهلاء، وأنني هنا أسأل هؤلاء الداعين للدين على غير حقيقته هل يوجد لدى أتباعكم من الوقت ما يكفي لدراسة الدين؟ وهل يستطيع من يحضر منهم الاجتماعات الدينية، أن يتفهم مثل تلك المناقشات والمجادلات الدينية، وأن يجد من المبررات الكافية لتفسير فكر معين.

وأنني أتساءل من هم هؤلاء البشر الحقيقيين الذين طلب منهم الرب أن يتفهموا هذا الدين هل هم الذين يقرأون الكتاب المقدس، أم هم الذين

يختلفون ويجادلون فيما بينهم، أم أنهم الحكماء الذين يملئون هذا العالم آملين في أن يصبحوا مسيحيين، وأتباعاً لهذا الدين الذي سينقذهم.

إن أناس مثل هؤلاء الذين يعتمدون على الاحتمالات هم الذين يقول الرسول عنهم لنا في رسالة بولس الرسول الأول الى أهل كورنثوس: «بدلا من أن يغلقوا على أنفسهم ويحتجبوا بعيداً عن بساطة الإنجيل الذي يبسط الطريق أمام هؤلاء الفقراء والجهلاء والأميين الذين يسمعون ويؤمنون بيسوع المسيح الذي يمكن أن يبعث الموتى الى الحياة مرة أخرى، ويؤمنون بأنه سوف يحاسب كل أمرىء على عمله يوم القيامة».

لقد جاء الأنجيل يبشر هؤلاء الفقراء، وهكذا تحددت خطوات يسوع المسيح على ما جاء في إنجيل متى في الاصحاح الحادي عشر، الآية الخامسة على النحو التالي: «العمى يبصرون، والعرج يمشون والبرص، يتطهرون، والصم يسمعون، والموتى يقومون والمساكين يبشرون».

ولقد كان في وسع هؤلاء المساكين البسطاء أن يتفهموا هذا الانجيل الذي بشروا به لما يتميز به من بساطة ووضوح، وهذا ما حدث بالفعل وما جاء به ـ كما رأينا من قبل ـ يسوع المسيح وتلاميذه».

تعليق:

يحاول لوك هنا أن يقرب العقيدة من العقل والمنطق فيعيب على العامة والجهلاء الانصياع وراء الأكاذيب التي لا تمس جوهر الدين. ويحثهم على التقرب إلى الدين وقراءته وفهمه والعمل بما جاء به، وما سوف يتوافق حتما مع طبيعة ومنطق العقل السليم، وهنا فإنه يحاول ابراز أهمية الدين ومميزات السيد المسيح عيسى بن مريم، وشهادة المسيح وكافة ما يقدمه الدين للمؤمنين به من وسائل النجاح والتوفيق في الحياة الدنيا، وطريق العمل لمرضاة الله، والعمل بناموس كتابه المقدس.

* فلسفة الدين بين مذهب لوك العملي، ومذاهب الفلاسفة العقليين المسيحيين.

تبين لنا مما سبق الموقف الديني للوك الذي لم يأت مختلفاً مع موقف فلاسفة عصره السابقين واللاحقين والمعاصرين له، فقد أستلهم دينه من واقع الكتاب المقدس المسيحي، واتجه لتعريف السيد المسيح، وتفسير معجزاته وبيان علامات الدين وأهميته، ثم حاول التقريب بين عقيدته، وبين منطق العقل أو ناموس العقل فكأن قانون العقيدة ومسلماتها تتفق منذ الأزل مع طبيعة الإنسان وفطرته الأولى.

والحق أن هذا الموقف يتفق وموقف ديكارت الذي كان قد أخفى هذا الاتجاه انسياقاً مع روح العصر (القرن السابع عشر) ومعايشته للظروف، وتجنباً مع السلطة الذي تجرأ سلفه سيبنوزآ على الوقوف ضدها فلاقى الأمرين، ومن ثم حاول ديكارت في الظاهر التخلص من اللاهوت أو استبعاده فاستطاع أن يقدم لنا واجهة عقلية براقة لحامل لاهوتي مستتر.

ورغم أن ديكارت قد حاول اثبات وجود الله بثلاثة أدلة تأدت إلى اثبات وجوده بوصفه كائناً كاملا لا متناهياً، فقد حاول ديكارت أن ينغمس في عقيدته من خلال تصور الفعل الإلهي الذي يقول عنه في أحد نصوصه: «والذين يمعنون النظر في طبيعة الزمان يجدون أن حفظ جوهر ما في كل لحظة من لحظات مدته يحتاج إلى عين القدرة، وإلى عين الفعل اللازمين لاحداثه أو لخلقه من جديد إذا لم يكن بعد موجوداً»[1].

وفي هذا النص يشير ديكارت إلى العناية التي ترفع العالم من العدم في كل لحظة، فأن أي جوهر مخلوق ما كان له أن يستمر في الوجود لحظة ماضية. أو أخرى مستقبلة لولا هذا الحفظ الإلهي المستمر وعلى هذا النحو

---

(١) Descartes. R. **Miditations.** E. Thouverez 1941. N. 3. P. 194 — 195.

تبدو فكرة الخلق الإلهي عند ديكارت وقد اقترنت بفعل العناية الإلهية فالعالم يتحرك وفق مشيئته وإرادة الله ووفق علمه المسبق.

وهكذا يتضح لنا مما سبق تمييز ديكارت بين الكون، والله وهي فكرة أيدتها مسألة الخلق، وطبقا لميتافيزيقاه فان المخلوقات لا تتشبه بالخالق كما كان الحال عند أرسطو، فليس بين الله، وبين الكون وجه من وجوه المشابهة.

أما إيمان ديكارت بالحفظ والعناية فيأتي من أن العالم في تصوره كان يحتاج إلى سند ميتافيزيقى لايمانه بالخلق المستمر، في حين نجد أن بعض المذاهب الأخرى تقصر فعل التكوين أو الخلق على المبادأة أو على الفعل الأول متجاهلة في ذلك وجود خلق مستمر من المبدأ الأول في الزمان باعتبار أن العالم مصنوع ـ قد صنعه الله ـ هذه المذاهب لا ترى أن العالم يحتاج إلى حفظ وعناية طالما أنه يسير بمقتضى الفعل الإلهي الأول والحكمة الإلهية التي تحيط علما بما يحدث في العالم من حادثات كلية، ولا علم لها بجزئياته، فالعالم حسب تصور هذه المذاهب يسير وفق نظام حتمي معقول.

وهكذا فقد أفسح مذهب ديكارت بفكرته عن الخلق المستمر المجال للتدخل الإلهي المستمر في الوجود. وعلى نحو ما يشير ديكارت لمبدأ العناية المتمثل في نظريته عن الخلق المستمر، فإنه يشير كذلك إلى حرية الفعل الإلهي فالله في مذهبه «علة فاعلة للحسن، والقبح، وإرادة الله تفعل الممكن، وتفعل المستحيل، والله قادر على أن يحدث المتناقضات».

وعلى نحو ما أشار ديكارت إلى مسألتي العناية والحرية فقد أشار إلى صفات الله. كالوحدانية والأزلية واللانهائية والعلم والقدرة والروحية والبساطة.

يقول ديكارت في صفات الله: ـ أريد أن أعاين هذا الإله ذا الكمال المطلق، لكي أنعم النظر في صفاته البديعة ولكي أتأمل بهاء نوره الذي لا مثيل له، لكي أتعشقه، وأتعبد له على الأقل بقدر ما في وسعي، وما تسمح به

قوة ذهني الذي كأنما يرتد من هذا التطلع مبهوراً، فكما أن الإيمان يعلمنا أن الغبطة العظمى في الحياة الأخرى انما تنال بهذه المعينة للجلالة الإلهية، كذلك تعلمنا التجربة ولا تزال بأن تأملاً كهذا. وان يكن بعيداً كل البعد عن الكمال. يتيح لنا أن نظفر من الرضا بأكبر قسط نستطيع أن ننعم به في هذه الحياة»[1] وإذا تأملنا هذا النص وجدنا أنه قد غلب على الفيلسوف في ثناياه شعور ديني واضح، إذ أن معاينته للإله، وتأمله لجلاله إنما يطلعانه على إله ذي كمال مطلق، ذي صفات بديعة حتى يتسنى له أن يتأمل بهاء نوره الفريد، فيتمكن من محبته والتعبد له على قدر نهائيته بوصفه ـ ديكارت ـ مخلوقاً وعلى قدر ما تسمح له قواه الإدراكية البسيطة ـ الضعيفة، ثم نجد أن الفيلسوف يشير في ثنايا هذا النص إلى مدى ما يظفر به الإنسان من سعادة قصوى في الدار الآخرة، وما يناله من رضا في حياته الدنيا بهذا التأمل للجلال الإلهي من خلال هذا المشهد الفريد بين الله وبين مخلوقاته.

وهكذا يبدو لنا، أن هناك اتفاق بين لوك وديكارت في استمدادهما من منابع الدين المسيحي والأشارة إلى الله ومزايا الدين، والعمل الخير في تحقيق سعادة الإنسان وهي تلك السعادة الأخروية التي أشارت إليها مالبرانش من جهة أخرى متفقاً معهم فيها، خاصة وأنه قد استمد فلسفته من فكر أوغسطين اللاهوتي، فقد وردت في فلسفته المتأثرة باللاهوت بعض المسائل الهامة ذات الصلة بالدين المسيحي مثل مسائل الخطيئة، والنعمة والمحبة وكذلك مسائل الخير والشر، والحرية الإنسانية والإلهية وهي مسائل استند إليها في تأسيس مذهبه في الأخلاق فهو يقول في ميتافيزيقاه المستمدة من العهد الجديد يقول مسيح «مالبرانش» مخاطباً الإنسان: «أنت هيكل الله الحي وأنت جزء من جوهري».

ويتفق لوك مع مالبرانش في تفرقتهما بين الفضيلة والثروة أو الرفاهية،

---

(١) ديكارت، التأملات، عثمان أمين، التأمل الثالث، ص ١٦٤.

وأنهما لا يجتمعان يقول مالبرانش: «إن الشغف بالثراء والسعي إليه من الموضوعات الرئيسية التي ترضى ملذات الحس، بينما لا يمثل موضوع الفضيلة شيئا ذا قيمة لعدم اكتراث الناس بها أو بدعاتها[1]».

ويتفق لوك كذلك مع بسكال في مسألة صحة الدين التي تأتي من توافقه التام مع الطبيعة الإنسانية منذ بداية التاريخ، يقول بسكال عن أهمية الدين: «. . . يقوم الدين بتبرير المتناقضات المثيرة، والغريبة التي تنطوي عليها طبيعة الإنسان، أنه يرسم للانسان طريق السعادة في ظل الإله الذي يسعد المؤمن في القرب منه، ويشقى في الانفصال عنه. . . إن الدين يعمل على تبرير المتناقضات الموجودة فينا أملاً في الوصول إلى الله[2] وتحقيق خيرنا الذاتي، ومعالجة عجزنا، وتعريفنا وسائل العلاج».

أما ليبنتز أو فيلسوف الجوهر الروحي. فقد تصور أن الجوهر سبب كافي لكل التغيرات والتفاصيل، ولما كانت التغيرات أو التفاصيل ترتبط معاً في كل إذن فيوجد إله واحد فقط وهذا الإله كافي[3]». وهذا الإله الواحد الذي أشار إليه ليبنتز في ميتافيزيقاه إنما هو الإله الديني المسيحي الذي أشار الدين إلى وجوده الأول وهو عند ليبنتز علة وجوده أو موجود ضروري «لأن الأشياء لا يمكن أن تحصل على سببها الكافي أو النهائي إلا في الموجود الضروري الذي يتضمن سبب وجوده في ذاته» كما أنه الإله الذي يحيط خلقه بالحفظ والعناية التي تظهر إبتداء من خلق العالم على أكمل وأجمل صورة ممكنة إلى عنايته المستمرة له في كل لحظة من لحظات الوجود، فالله دائماً مع العالم «وكل نفس ناطقة تشبه إلهاً صغيراً في دائرتها[4]» وهذا يشير إلى قدرة النفس على الدخول في نوع من الزمالة مع الله، وهكذا تتحول العلاقة بين الموناد

---

(1) Malebranche. N. **La Recherche,** Tomel P. 455.

(2) Pascal B: **Les Pensées** Pen 430. P. 219.

(3) Carr. H. Widon: **The Monadlogy of Leibniz** Para 38. P. 35.

(4) Ibid, Para 83 p. 35.

الأعظم (الله) والعالم إلى صورة رائعة للعناية، يصبح الله مخترعاً للعالم، بل خالقاً له كما تصبح العلاقة بينه وبين العالم علاقة سامية ومجيدة مثل علاقة الأمير برعاياه أو الأب بابنائه، وهذه علاقة مثالية تتسم بالأخلاق لا بالسيطرة. كما أنها علاقة أشار إليها الكتاب المقدس المسيحي تقول الآية: ـ «كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضا للخوف بل أخذتم روح النبي الذي به تصرخ يا أبا الأب الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله»[1].

وفضلاً عن تصور ليبنتز للإله المسيحي الذي وضعه في قالب ميتافيزيقى نجد في فلسفته إشارات أخلاقية إلى نفس ما ورد بروح النص المسيحي عن الخير والحب، والفضيلة يقول ليبنتز: «إن الإله هو موضوع الحب في الدولة، وإن ذلك الحب يجب أن يمنحنا سعادة عظيمة لأن موضوعه الله، وهو ضرب من الحب الحقيقي الذي يحقق خيرنا الأعظم، كما يشعرنا بأقصى سعادة ممكنة»[2].

هكذا يبدو الطابع الغالب على مذهب ليبنتز طابعاً ميتافيزيقيا في ظاهره بيد أن تحليله والوقوف على أعماقه يظهر أنه مذهباً في فلسفة الدين المسيحي فجميع التصورات تعود في نهاية الأمر. لتخدم فكرة المملكة الأخلاقية للعناية. أو فكرة اللاهوت المسيحي. الذي أفرد لها ليبنتز كتابه «العدالة الإلهية» «Theodiceé الذي يعني به بحث في وجود الله وحرية الإنسان، وأصل الشر كما نشر مع هذا الكتاب رسالة بعنوان «مقال في موافقة العقيدة الدينية للعقل» حيث يعرض فيه لمزاعم بيل Pierre Bayle بصدد مشكلة الخير والشر لكي يثبت أن حقائق الاعتقاد فوق مستوى العقل لكنها لا تنافيه. مما يؤكد ما ذهب إليه لوك عن اتفاق حقائق العقيدة مع طبيعة الإنسان وفطرته التي تعلمها

---

(١) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية الاصحاح الثامن، آية ١٥، ١٦، ص ٥٦ح

(٢) Leibniz: **Principe De La Nature Et De La Grace** Para 16 P. 17.

جيداً، وأن حقائق ومسلمات الدين تبدو متوقفة مع منطق العقل، ولو أن الإنسان رجع إلى عقله ومنطقه السليم لتأكد من صحة حقائق الدين. وهو موقف يبر أصول الدين بمنطق العقل ويوجد بين الفلسفة والدين في وحدة لا تنفصم.

على نحو ما سبق تبرز لنا مشكلة الصلة بين الفلسفة والدين على نحو ما ظهرت عليه خلال العصر الوسيط، وإذا كنا ندرس في هذا المقال الصغير مواقف بعض الفلاسفة المسيحيين من الدين مع أنهم كانوا فلاسفة أصحاب مذاهب عقلية ميتافيزيقية في محاولة لمقارنة مواقفهم مع الدين بموقف لوك التجريبي فإننا ننتهي إلى أن التيار اللاهوتي قد ظل كامنا (مستتراً) في مذاهب فلاسفة القرن السابع عشر عقليين أو تجريبيين فنحن نجد أن ديكارت ـ مؤسس الفلسفة العقلية ـ يضع الله (الميتافيزيقي) في قمة نسقه المعرفي ويعزى إليه وضوح الفكر وتميزه ومع ذلك فإن تحليل مذهبه يبرز لنا واجهة لاهوتية مستترة خلف مذهبه العقلي تشير إليها عنده فكرة وجود الله، ونظرية العناية وصفات الخالق، والأخلاق المسيحية في الحب والخير، وغير ذلك من موضوعات.

وفي حين نادى ديكارت بالعودة إلى العقل باعتباره منبع الفكر الجلي المتميز فقد نادى مالبرانش بالرجوع إليه باعتباره وسيلة اتصالنا بالله الذي توجد فيه معاني معرفتنا، والمذهب الفلسفي عند مالبرانش ينغمس في الدين من جهة مع أنه يتابع المذهب الديكارتي ويتأثر به إلى أبعد الحدود ويظهر ذلك بصفة خاصة في مبحثي المعرفة والأخلاق[1].

وإذا كان مالبرانش يتجه إلى الرؤية في الله إثر مسايرته الواضحة لمذهب ديكارت العقلي، والذي تأدي به منطقيا إلى نظريته في المعاني، فإن بسكال قد أهتم بالدين من خلال فلسفته وحاول تبرير الدين بالفلسفة، فخاض في

---

(١) د. رواية عبد المنعم عباس: مالبرانش والفلسفة الإلهية، الباب الرابع والخامس، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ١٩٨٥.

أعماق نفس الإنسان واكتشف ضآلتها وضياعها ولم يكن له من حل سوى العودة إلى الدين الذي رأى فيه الحل، والاطلاع على مذهبه يكشف لنا عن مذهباً مسيحياً خالصاً مع واجهة فلسفية عقلية تارة، ووجودية تارة أخرى[1].

وإذا نظرنا إلى مذهب ليبنتز المثالي (الروحي) وجدنا أنه يحاول إثبات أن حقائق الاعتقاد فوق مستوى العقل لكنها لا تنافيه، وهكذا تأتي فكرته عن الموناد الأعظم، والمدينة المثالية «مدينة النفوس الناطقة»، ومذهبه في الأخلاق، وفي مشكلتي الخير والشر اللتين عرضهما في كتابيه الرئيسيين في الدين وهما «العدالة الإلهية»، و«ومقال في موافقة العقيدة الدينية للعقل» - تأتي مؤكدة لموقفه المستتر من اللاهوت المسيحي.

وعلى هذا النحو الذي ظهرت عليه فلسفات هذا القرن (السابع عشر) من محاولة التوفيق بين الفلسفة، والدين بتبرير العقيدة عقليا، أو الجنوح لها مع الايمان بالعقل. نجد أن فلسفة لوك التجريبية تواكب هي الأخرى تيار العصر. وتعود إلى العقل والمنطق في تبرير حقائق الدين، كما تحاول أن تقرب البين بين حقائق الدين، وبين الفطرة الأولى للإنسان، والإطلاع على كتاب «معقولية المسيحية» يكفي شاهداً على هذه المحاولة الناجحة التي يتعرض فيها لوك للعقل في مواجهة حقائق الوحي فيدافع عن الدين ويحترم الفكر، وينادي بالتجربة الحسية، كما يهيب بالخبرة في طريق العودة إلى الدين الحقيقي.

---

(١) د. رواية عبد المنعم عباس: بليز بسكال وفلسفة الانسان، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٦.

- ١

ثبت بالمراجع
الأجنبية والعربية

١ ـ مراجع عربية .
٢ ـ مراجع أجنبية .

١ ـ المراجع العربية

١ ـ أفلاطون: محاورة فيدون، محاورات أفلاطون. د. زكي نجيب محمود الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٥.

٢ ـ حبيب الشاروني: فلسفة فرنسيس بيكون، دار الثقافة، الدار البيضاء ١٩٨٣.

٣ ـ ديكارت: التأملات ت د. عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩.

٤ ـ زكي نجيب محمود: دافيد هيوم سلسلة نوابغ الفكر القاهرة ١٩٥٨.

٥ ـ زكريا إبراهيم: كانط أو الفلسفة النقدية، عبقريات فلسفية، مكتبة مصر الفجالة ط ٢ د ت.

٦ ـ زكريا إبراهيم: مشكلة الحرية، مكتبة مصر الفجالة د ت.

٧ ـ عثمان أمين: ديكارت. مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٥.

٨ ـ علي عبد المعطي محمد: تيارات فلسفية حديثة، دار المعرفة الجامعية ١٨٩٤.

٩ ـ عبد الرحمن خليفة: مقالات سياسية، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٥.

١٠ ـ عزمي إسلام: جون لوك، دار المعارف بمصر ١٩٦٤.

١١ ـ محمد علي أبو ريان: الفلسفة الحديثة دار الكتب الجامعية ط (١) ١٩٦٩.

١٢ ـ محمد علي أبو ريان: الفلسفة أصولها ومبادئها، المعرفة الجامعية ١٩٨٧.

٢ - المراجع الأجنبية

1 - Aaron, ch: John Locke, second E, Oxford. 1955.

2 - Alburey. Dastell, D. M. B: **An Introduction to modern philosophy** University of oregn. U. S. A.

3 - Aristotle: **Metaphysics, T.** John Warrington London Every man' s Library 1926.

4 - A. D. Woozley, **John Locke: An Essay**Fontana Library philosoalexander. c. fraser Volume 1, 11 N. Y 1894.

5 - Copleston, Fredric K. S. J: **A history of modern philosophy** volume 5 N. Y. 1963.

6 - Descartes. R: **Oeuvres.** A. T, **Le Monde Paris** 1896 - 1910.

7 - ——————: Meditations, Emile thouverez. Paris. 1941.

8 - Ernest, Barker: **Social contract Locke. Hobbes. Rousseau:** Loncon, N. Y. 1976.

9 - Locke. J: **An Essay concerning human understanding.**

10 - ——————: **Some Thoughts concerning education** London 1965.

11 - ——————: **Second treatise on** livil govermment

12 - ——————: **A Note on Hoppiness** London 1965.

13 - Leibniz, G. W: the monadology. **T;** H. W carr, NY 1930.

14 - ——————: **Principe de la Nature et de la Grace,** Paris 1878.

15 - Morris. G. R: Locke: **Berkeley and hume** oxford university 1931.

16 - Maurice cranston: **Locke on politics, Religion and Education** N. Y. 1965.

17 - Malebranche. N: **La Recherche de la Vèrité**, tome 1 Ernest flammarion editeur, Paris 1753.

18 - O' Connor. D. J: **Acritical History of western philosophy John. Locke,** London 1952 the Free press of Golence U. S. A 1964.

19 - Pascal. B: **Les Pensées,** Emile Faguet nelson editeurs 1943.

20 - Popkin. H, Richard, Avrum stroll: **Philosophy Made simple** N. Y 1956.

21 - Russel. **B: A History of western philosophy** London 4 E 1947.

محتويات الكتاب

الفصل الثالث

المعرفة التجريبية

الفصل الرابع

تصور الجوهر عند لوك

الفصل الخامس

النظرية السياسية

الفصل السادس

الفلسفة الأخلاقية

الفصل السابع

النظرية التربوية

الفصل الثامن

الدين

الفصل التاسع

فلسفة الدين

أو

معقولة المسيحية

رؤية تحليلية